الفصل الأول:
[مرحلة الدفاع عن الدولة ومعركة بدر]

الصراع بين الحق والباطل:

إن الصراع بين الحق والباطل قديم قدم الإنسانية، فمنذ خلق الله تعالى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقف الشيطان موقفه الجاحد المعاند المستكبر، وقضي الله عليه بالطرد واللعن. كانت - منذ ذلك الوقت - بداية الصراع... الصراع بين الخير والشر، وبين الحق والباطل وبين المعتدي والمعتدي عليه

وتطور ذلك الصراع بتطور الجنس البشري وازداد ضراوة بازدياد تمكن الباطل من نفوس الناس واستحواذ الشيطان عليهم.

ومن السنن الكونية سنة التدافع أو سنة الصراع بين الحق والباطل، كما أنها ماضية عبر التاريخ الإنساني الطويل، وباقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ويحتدم الصراع نتيجة هذا الاختلاف لإقرار الحق أو إقرار الباطل، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٧٦].

وهذا التدافع هو الذي عناه الله (سبحانه وتعالى) بقوله: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهذا الذي عناه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**»[(١)].

وهذه الطائفة المنصورة تجتمع فيها أسباب النصر المعنوية والمادية التي خلقها الله (عز وجل)، من علم صحيح، وسلوك مستقيم، وأخذ بالمقدمات التي جعلها الله وسيلة موصلة إلى نتائجها المرجوة؛ وإلا فإن مجرد الإيمان والالتزام بعقيدة أهل السنة والجماعة دون الأخذ بأسباب التمكين ومقدماته المادية، ودون الالتزام بسنن الله الكونية الصارمة لا يضمن النصر ولا يكفل الظهور والتمكين في

(١) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي)، كتاب الإمارة، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، ١٣ / ٦٦.

الأرض الذي وعد الله به عباده الصادقين [1].

وقد أوضح الله (عز وجل) أن الجهد الإنساني للمؤمنين هو الذي يحسم الصراع بقدر من الله لصالح المؤمنين: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

إن التدافع الذي يعنيه القرآن الكريم من خلال هذه السنة هو الذي يكون لخير البشرية، وبه يتحقق السلام العالمي، بتحقيق العبودية لله وحده في الأرض، وإزالة كل طاغوت يُعبد من دون الله، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾ [الأنفال: ٣٩].

فالبشرية بدون العبودية لله (عز وجل) لا تستطيع أن تسلك قاعدة عليا من الحق؛ لأن لكل معبود من الشركاء قاعدته الخاصة وسبيله المختلف، ولا سبيل أبداً لتوحيد هذه القواعد إلا بالتخلص من الشركاء جميعاً، والاتجاه المنقاد المستسلم لله (تعالى) وحده لا شريك له.

وبين فوضى الأرباب والآلهة والطواغيت والمعبودات ذات الأسماء والشعارات المختلفة والصور المتباينة يرسم القرآن الكريم للمؤمن الموحد طريقاً واضحاً أبلجَ لا زلل فيه ولا عثار، محذراً إياه بأن اختياره لغير هذا الطريق أو تردده في الاستمساك به معناه الكارثة المحققة والخسارة الكبرى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٦].

كما بيّن القرآن الكريم أن عاقبة الصراع تكون دائماً للمؤمنين مهما طال الطريق وعصف بهم طغيان المشركين: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

والهدف من هذا البيان هو شد عزائم الجماعة المؤمنة لتعي وتفقه طبيعة الصراع بين الإيمان والكفر، ولتعد نفسها إعداداً كاملاً، علماً وتربية وتخطيطاً وتنظيماً لمواجهة أعداء وعوائق الطريق وكثرة الأعداء من الداخل والخارج، من

(١) محمد عبد الهادي المصري: أهل السنة والجماعة، ص ٥٢.

النفس والعشيرة والأموال والأزواج، ومن الشيطان وجنوده، ومن المشركين.

وفي ضوء ما بذله المؤمنون من جهد بقيادة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن خلال ما قدموه من تضحيات في الأموال والأنفس وهجرة الأوطان والأهل، جاءتهم البشرى بحسم الصراع لفائدتهم واستخلافهم في الأرض: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وحقيقة الأمر فإن الدفاع عن الدولة بالحروب هي وسيلة من وسائل حل المشاكل الاجتماعية، إلي هذا العهد الذي بلغت الإنسانية فيه أشدها، ونالت العقول رشدها، فإلي أي مآل كانت تؤول حالة الجماعة الإسلامية التي دعيت إلي نشر الدين العالمي في عهد كان الحق لا يمكن الاحتفاظ به إلا بالقوة والحكمة لا يستطيع الإدلاء بها إلا إذا حاطتها القوة، بل والحياة لا يتأتى أن تبقي إلا إذا نافحت عنها القوة.

والأمم الغربية بعد أن نالت ما نالته من ثقافة علمية عالية وألمعية فلسفية سامية، ومدنية مادية راقية لا تزال تعمد في العصر الحديث لحل مشاكلها المختلفة إلي الحرب، فلماذا إذن تحرم هذه الأمم الغربية على الأمم الإسلامية - التي تألفت منذ أربعة عشر قرنا - الحرب، وقد أنيط بها إحداث تطور عالمي من الناحيتين المدنية والاجتماعية، وهما أدعى إلي إثارة النفوس من جميع الخلافات البشرية؟

ومن الحقائق التي لا يمكن إنكارها أن قاعدة الإسلام الأساسية هي السلام، والحرب هي الاستثناء، فلا مسوّغ لهذه الحرب - في نظر الإسلام - مهما كانت الظروف إلا في حالات محدَّدة.

وإذا كان الإسلام قد أتاح الحرب ولكنه حاطها بالملطفات بما لم تبلغ إليه مدنية القرن العشرين، ولا إلي ما يقرب منه، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التي يعتبرها الأوروبيون مقدسة، فقد جاء في الكتاب الخامس من الزبور قوله: "إذا أدخلك ربك في أرض لتملكها، وقد أباد أمما كثيرة من قبلك، فقاتلهم حتى تفنيهم عن أخرهم، ولا تعطهم عهداً، ولا تأخذك عليهم شفقة أبداً".

فالإسلام إذاً لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ولكنه انفرد كعادته بتلطيف هذه المجازر الإنسانية إلي آخر حد يمكن

الوصول إليه ، بدون الإخلال بسلامة الحوزة ، فوضع للحرب حدوداً وشرط على الغزاة شروطاً ، كلها ترقي إلي احترام الدماء البشرية والعمل بأرقي ضروب العطف على الإنسانية ، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت تري فيه الإنسانية أن الحرب أصبحت أداة وحشية ، وأن التفاهم فيه العطف خير بدلاً منها ، فإنهم عليهم أن يتابعوا الإنسانية في ترقيتها ويدخلوا فيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحرب وحشية ، والجري على ما يجري عليه الناس من حلول الخلافات بالطرق السلمية .

سنة التدافع:

وقد تعامل الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع سنة التدافع ، ويظهر ذلك جليا في الفترة المدنية مع حركة السرايا والبعوث والغزوات التي خاضها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضد المشركين ، وهذه السنة متعلقة تعلقا وطيدا بالتمكين لهذا الدين ، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز وجاء التنصيص عليها في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

وفي قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠] .

ونلاحظ في آية البقرة أنها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل المتمثل هنا في طالوت وجنود المؤمنين ، وجالوت وأتباعه ، ويذيّل الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٥١] (مما يفيد أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعم الناس كلهم) .

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين وبعد إذنه لهم – سبحانه – بقتال عدوهم ويختتم الآية بتقرير الله تعالى لقاعدة أساسية: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ .

فكان تشريع القتال على مراحل:

المرحلة الأولى: الحظر ، وذلك عندما كان المسلمون في مكة ، وكانوا يطالبون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإذن لهم في القتال فيجيبهم: «**اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال**» .

المرحلة الثانية: الإذن به من غير إيجاب ، قال تعالى: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ**

ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

المرحلة الثالثة: وجوب قتال من قاتل المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

المرحلة الرابعة: فرض قتال عموم الكفار على المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

إن هذا التدرج في حكم القتال كان يقتضيه وضع الدولة الإسلامية الناشئة، وحالة الجيش الإسلامي الذي كان يأخذ في التكوين من حيث العدد والعُدد والتدريب، وما إلى ذلك فكان لا بد من مضي فترة من الوقت يكون التعرض فيها لأعداء الدعوة الإسلامية من كفار قريش الذين آذوا المسلمين، واضطروهم إلى الخروج من ديارهم، يكون فيها ذلك التعرض لأعداء الدعوة، إنما هو على سبيل الاختيار، لا على سبيل الإجبار، وذلك إلى أن يصلب عود الدولة الإسلامية ويشتد بأس القوة الإسلامية، بحيث تستطيع الصمود أمام قوى الكفر في الجزيرة العربية فيما لو عملت قريش على تأليبها ضد المسلمين، كما وقع فيما بعد، وحينئذ يأتي وجوب القتال، في حالة تكون فيها أوضاع الدولة الإسلامية، والجيش الإسلامي على أهبة الاستعداد لمواجهة كافة الاحتمالات، هذا فيما يتصل بالقتال الذي يتعرض فيه المسلمون لكفار قريش، جاء النص بالإذن، أي بالإباحة لا بالوجوب أما في حالة ما لو تعرض فيه المسلمون وهم في دولتهم في المدينة لهجوم الأعداء عليهم، فالقتال هنا فرض لا مجال فيه للخيار، وليس مجرد أمر مأذون فيه، وذلك تطبيقاً لبيعة الحرب، بيعة العقبة الثانية التي أوجبت على الأنصار حرب الأحمر والأسود من الناس في سبيل الذود عن الدعوة الإسلامية، وصاحبها وأتباعها.

إعلان الحرب على الدولة الإسلامية الناشئة:

لأن أهل مكة لن يرضوا بأن يقوم للإسلام كيان ولو كان في المدينة، لأن ذلك يهدد كيانهم، ويقوض بنيانهم، فهم يعلمون أن قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهلية وعادات الآباء والأجداد، فلابد من الوقوف في وجهه.

فبادر زعماء مكة في إعلان الحرب على المسلمين، والسعي بشتى الطرق لإحداث حرب أهلية داخل المدينة، فأرسلوا إلى عميلهم عبد الله بن أبي بن سلول - وكان إذ ذاك مشركا بصفته رئيس المدينة قبل الهجرة، فقد كاد الأوس والخزرج أن يجعلوه ملكا عليهم، لولا هجرة النبي كتبوا إلى ابن سلول ومن خلفه

من المنافقين في كلمات تنم عن شدة الحنق والغيظ على المسلمين:

"إنكم آويتم صاحبنا ! وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم".

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبي ليمتثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة - وقد كان يحقد على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لما يراه أنه استلبه ملكه - يقول عبد الرحمن بن كعب: فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما بلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقيهم، فقال: «**لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر ما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم**»، فلما سمعوا ذلك من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفرقوا.

امتنع عبد الله بن أبي بن سلول عن القتال إذ ذلك، لما رأي خوراً أو رشداً في أصحابه، ولكن يبدو من تصرفاته أنه كان متواطئاً مع قريش، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين، وكان يضم معه اليهود، ليعينوه على ذلك، ولكن تلك هي حكمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي كانت تطفئ نار شرهم حينا بعد حين.

ومن المواقف العدائية التي اتخذتها قريش الصد عن المسجد الحرام واعتبار الأنصار من أهل الحرب والذي يدل على ذلك، ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدَّث عن سعد بن معاذ أنه قال: كان صديقاً لأمية بن خلف، وكان (أمية) إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على (أمية) فلما قَدِم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة انطلق (سعد) معتمراً فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً، وقد آويتم الصُّبَاه وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما، فقال له (سعد) ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة... وفي رواية عند البيهقي: «والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن عليك متجرك إلى الشام».

السرايا الاعتراضية:

بعد أن هاجر الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلي المدينة وأعلنت قريش الحرب

علي الإسلام والمسلمين في المدينة ، أخذ الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحشد قواته فيها ، ويوحد صفوف سكانها على اختلاف ميولهم وأهوائهم ودياناتهم ، ويجعلهم كتلة متحدة للدفاع ضد الغارات الخارجية "[1] واتخذ في هذا الصدد خطوتين أساسيتين هما:

أولاً: عقد المعاهدات مع حلفاء قريش التجاريين الذين تخلوا عن حلفهم القديم المسمى بالإيلاف ، وبالتالي ضمن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيادة هذه القبائل وعدم نصرتها لقريش حتى يتمكن المسلمون من التعرض لقوافلهم وهي مفتقرة لحماية الحلفاء ، وأهم القبائل التي عقد التحالفات معها تلك القبائل التي كانت مجاورة للطريق التجاري ، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة ، وقد عقد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاهدة مع جهينة قبل الأخذ في النشاط العسكري ، وكانت مساكنهم على ثلاث مراحل من المدينة ، ونصت وثيقة الموادعة مع جهينة علي: (إنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم ، وإن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل . ولأهل باديتهم من برٍّ منهم وأتقى مالحاضرتهم) [2] .

كما عقد معاهدات أخرى أثناء السرايا العسكرية .

ثانياً: عمل تكتيات عسكرية على شكل سرايا اعتراضية كان من أهدافها ما يلي:

١ - إعلان الحرب على قريش تنفيذًا لأمر الله عز وجل: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] .

وقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله ﴾ [الأنفال: ٣٩] .

٢ - إشعار أعداء الدولة الإسلامية الفتية "بأن المسلمين أقوياء ، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم ، ذلك الضعف الذي مكّن قريشًا في مكة من مصادرة عقائدهم ، وحرياتهم ، واغتصاب دُورهم وأموالهم "[3] .

٣ - استهدفت إرباك قريش وحلفائها ، وإضعافهم ، وتحطيم معنوياتهم بضرب نشاطهم التجاري الذي يمثل عصب حياتهم ، وشريان وجودهم [4] .

---

(١) محمود شيت خطاب ، الرسول القائد ، ص ٧٤ .

(٢) محمد حميد الله الحيدربادي ، مجموعة الوثائق السياسية ، ص٦٢ .

(٣) محمد الغزالي ، فقه السيرة ، ص ٢٢٨ .

(٤) خليل عماد الدين ، دراسة في السيرة ، ص ١٧١ .

وذلك يبث الرعب والفزع في نفوسهم بإثارتهم الدائمة فهم يتوقعون هجوم المسلمين في كل لحظة، مما يشل تفكيرهم، فيسلبهم بذلك مبدأ المبادرة الأساسي في تحقيق أي نصر.

٤ - تدريب قوات المسلمين على القتال لتتحقق لهم اللياقة الكاملة اللازمة لخوض غمار المعارك الكبرى، فهم في حالة استنفار قصوى منذ بدأت السرايا الأولى، "ومن جهة أخرى جاءت هذه الهجمات أشبه بمناورات حيَّة كان المقاتل المسلم يجس عن طريقها نبض أعدائه ويختبر إمكاناتهم الحربية، ماديًّا، ومعنويًّا، ويمارس مزيدًا من التدريب وتنمية قدراته وطاقته على الصمود".

٥ - المعاملة بالمثل فكما أن قريشًا قد استولت على أموال المهاجرين في مكة، كان في الاستيلاء على قوافلهم نوع من العوض عما فقده المهاجرون من أموال ومتاع، وبالتالي "الحصول على مورد للتموين والتسليح في أعقاب الأزمة المالية التي كان المسلمون يعانون منها في مطلع عهدهم بالهجرة"[١] بسبب ما تركوه من مال ومتاع في مكة فرارًا بدينهم وحفاظًا على عقيدتهم وهجرة إلى الله ورسوله "فلا عجب إذا رأينا المسلمين يفكرون جديًّا في استخلاص أموالهم من قريش"[٢].

السرايا والغزوات[٣] قبل معركة بدر:

١ - سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر:

بعد أن أعلنت قريش الحرب علي الدولة الإسلامية الوليدة في المدينة، أعد الحبيب محمدا العدة لتأمين دولة الإسلام، وتنفيذًا لأمر الله عز وجل ودعوته لجهاد المشركين انطلقت طلائع الإيمان تبث الرعب في صفوف المشركين، فقد علم

(١) خليل عماد الدين، دراسة في السيرة، ص ٩٩.

(٢) خطاب، الرسول القائد، ص ٩٩.

(٣) يطلق كتاب السير في الغالب على كل مجموعة من المسلمين خرج بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلقى عدوه غزوة، سواء حدث فيها قتال أو لم يحدث، وسواء كان عددها كبيراً أو صغيراً، ويطلق على كل مجموعة من المسلمين يرسلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاعتراض عدو كلمة: سرية أو بعث، وقد يحدث فيها قتال وقد لايحدث، وقد تكون لرصد أخبار عدوه أو غيره، وغالباً مايكون عدد الذين يخرجون في السرايا قليلاً، لأن مهمتهم محددة في مناوشة العدو وإخافته وارباكه، وقد قاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبعاً وعشرين غزوة، وأرسل مايقدر بثمان وثلاثين سرية وبعثاً، وقد خطط لها في فترة وجيزة في عمر الأمم بلغت عشر سنوات من الزمن .انظر: أبو فارس، في ظلال السيرة / غزوة بدر، ص١٢.

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هناك قافلة قرشية محملة بالأموال والبضائع وهي في طريق عودتها إلى مكة من الشام، يقودها أبو جهل بن هشام، ويحرسها حوالي ثلاثين راكبًا من فرسان قريش، فجهز لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "دورية قتال اعتراضية قوتها" ثلاثون مجاهدًا من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وعلى رأسهم أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي شهر رمضان من السنة الهجرية المباركة ارتفع أول لواء في سبيل الله تبارك وتعالى، وكان لونه أبيض، وحامله أبو مرثد كناز بن الحصين الغنوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حليف حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تحركت الدورية نحو الهدف المحدد لها وهو ساحل البحر الأحمر، حيث التقت بالقافلة القرشية ناحية العيص في منطقة نفوذ قبيلة جهينة "فالتفوا حتى اصطفوا للقتال"، وقبل أن يشتبك الطرفان في مواجهة دامية، تدخل رجل من كبار رجالات جهينة في وساطة سلام بينهم، فقام بجولات من المفاوضات المباشرة مع كل طرف على حدة حتى تمكن أخيرًا من النجاح في مساعيه السليمة "فحجز بينهم مخشى بن عمرو الجهني وكان مخشي ورهطه حلفاء للفريقين جميعًا، فلم يعصوه فرجع الفريقان كلاهما إلى بلادهم، فلم يكن بينهم قتال"[1].

وقد كانت نتائج هذه السرية على المعسكر الوثني سيئة للغاية حيث هزت كيان قريش وبثت الرعب في نفوس رجالها، وفتحت أعينهم على الخطر المحدق بهم والذي أصبح يهدد طريق تجارتهم، وبالتالي اقتصادهم.

أما المسلمون فقد كانت نتائجها عليهم إيجابية حيث تصاعدت الروح الحماسية بينهم، وأعطتهم بعدًا عميقًا من الثقة بالنفس والجرأة على عدوهم، ذلك الذي استطاعوا ولأول مرة الوقوف في وجهه بقوة أبهرت قريش وأدهشتهم" قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن حمزة:

يا معشر قريش إن محمدًا قد نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئًا، فاحذروا أن تمروا طريقه، وأن تقاربوه فإنه كالأسد الضاري، إنه

(١) انظر: البيهقي في الدلائل، ٣/ ٩ - ١٠، ابن سيد الناس، عيون، ١/ ٢٧١، ابن خياط، تاريخ، ٦٢، ابن هشام، السيرة، ٢/ ٥٩٥، الطبري، ٢/ ٤٠٤ - ٤٠٥، ابن سيد الناس، عيون ١/ ٢٧، وابن كثير، البداية ٣/ ٢٤٤، الواقدي، المغازي، ١/ ٩، وابن سعد، الطبقات، ٢/ ٧.

حنق[1] عليكم نفيتموه نفي القردان[2] على المناسم[3]، والله إن له سحرة، ما رأيته قط ولا أحدًا من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين وإنكم عرفتم عداوة ابني قيلة[4] فهو عدو استعان بعدو"[5].

ولما بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما دار بينهم من حوار نتيجة ردة فعلهم نحو شرارة الإنذار الأولى التي أطلقها تجاههم قال: "والذي نفسي بيده لأقتلنهم ولأصلبنهم ولأهدينهم، وهم كارهون، إني رحمة بعثني الله - عز وجل - ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه، لي خمسة أسماء، أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر يحشر الناس على يدي، وأنا العاقب"[6][7].

٢- سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب إلى رابغ:

في شوال سنة ١ من الهجرة - الموافق أبريل سنة ٦٣٢م، بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين رجلاً من المهاجرين لتوقيف تجارة لقريش في منطقة رابغ الساحلية، ولم يكن في تلك الغزوة من الأنصار أحد" وعقد له لواءً أبيض كان الذي حمله مسطح بن أثاثة بن المطلب بن عبد مناف".

انطلقت الدورية حتى وصلوا إلى رابغ "فلقوا بعثًا عظيمًا من المشركين على ماء يدعى الأحياء من رابغ".

وهناك حدثت أول مواجهة عسكرية بين المسلمين والمشركين "وهو أول يوم التقى فيه المسلمون والمشركون في قتال "ولكن القتال اتخذ طابع المناوشة بالسهام فقط، فكان سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "أول العرب رمى بسهم في سبيل الله"

---

(١) الحنق: الغيظ أو شدته.

(٢) القردان: جمع قراد وهي دويبة تعض الإبل.

(٣) المنسم: بكسر السين: طرف خف البعير والنعامة والفيل والحافر، وقيل: هو للناقة كالظفر للإنسان.

(٤) كناية عن الأوس والخزرج، فقيلة أمهم وكانوا ينسبون إليها.

(٥) ابن هشام، سيرة، ١/ ٢١٨ - ٢١٩.

(٦) رواه الطبراني في المعجم الكبير، ١٢٣ - ١٢٤. وقال عنه الهيثمي: ورجاله ثقات. الهيثمي، مجمع، ٦/ ٦٨.

(٧) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى - جمادى الأول - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، ص٨٤ - ٨٥.

في تلك المعركة التي لم تستمر طويلاً إذ قرر الفريقان الانسحاب من أرضها .

وقد كان انسحاب المسلمين قويًّا ومنظمًا حيث انسحبوا في قتال تراجعي تعطيلي [1] بواسطة حامية منهم تغطي انسحابهم حتى هبطوا ثنية المرة ، وكان بطل هذا الانسحاب الناجح سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان له الدور الأكبر في تشتيت وإحباط استعدادات العدو لشن أي هجوم مضاد وذلك بوابل من السهام المزعجة التي قذفها نحوه ، والتي كونت ساترًا دفاعيًا مهد لانسحاب سليم منظم بالنسبة للمسلمين ، وانسحاب متوتر مرعوب بالنسبة للمشركين ، هذا وقد فر عتبة بن غزوان ، والمقداد بن الأسود يومئذ إلى المسلمين وكانا في حبس قريش قد أسلما قبل ذلك ، فتوصلا بالمشركين حتى خرجا إلى عبيدة وأصحابه "[2]

وقد تحققت في هذه السرية بعض الأوليات المهمة في تاريخ الصراع الإسلامي الوثني على المستويين العام والخاص . فعلى المستوى العام اعتبرت أول مواجهة عسكرية بين الطرفين ، بعد انقضاء سنة كاملة على أول مواجهة انتهت سلميًا دون قتال . أما على المستوى الخاص فقد حقق سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من خلال هذه السرية سبقًا عسكريًا إسلاميًا يسجل في سجله الحافل بالإنجازات على امتداد حياته التي أفناها في سبيل إعلاء كلمة الله منذ أن نطق بالشهادتين فكان ثلث الإسلام[3] ، ثم أهريق على يديه أول دم في سبيل الله[4] ومرورًا بمشاركته الجهادية الفعالة مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانتهاءً بالقادسية والمدائن وفتح فارس ، وبناء الكوفة أول مدينة إسلامية خارج الجزيرة العربية .

كما أكدت هذه السرية استمرار سياسة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التعبوية الخاصة بحشد المهاجرين فقط في الغزوات والسرايا الأولى حتى بدر تنفيذًا لاتفاقية العقبة الثانية[5] .

---

(١) القتال التراجعي: هو ذلك الوضع الكريه أثناء الانسحاب ، عندما يكون القسم الأكبر من قواتنا قد فشل في تحقيق تراجع سليم ، وتتورط قواتنا في قتال مع العدو أثناء التحرك للخلف . انظر: باهر عبد الهادي ، مصطلحات عسكرية ، ص ٤٧ .

(٢) البيهقي ، دلائل ، ٣/ ٨ - ١٠ ، ابن سيد الناس ، عيون ، ١/ ٢٧١ .

(٣) أخرجه البخاري في مناقب سعد . انظر ابن حجر ، فتح ، ٧/ ٨٣ .

(٤) أخرجه الترمذي . انظر الألباني ، صحيح سنن الترمذي ، ٢/ ٢٧٧ .

(٥) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص٩٢ - ٩٣ .

٣- سرية الخرار[١] :

وكانت في ذي العقدة سنة ١ هـ، الموافق مايو سنة ٦٢٣م، وذلك أنه عندما بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن كرز بن جابر[٢] أغار على سرح المدينة[٣]، واستاقه معه، وقد خرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاعتراضه، ولكن فاته كرز بالسرح، فاستنتج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذكائه العسكري المعروف أنه لن يستطيع اللحاق به بقوات قد تكون بطيئة الحركة نوعا ما في سيرها الاقترابي، لذلك جهَّز على الفور "دورية تعقُّبية"[٤] صغيرة، قوتها "ثمانية رهط من المهاجرين"[٥].

وأسند القيادة فيها إلى رجل من أصحابه، معروف عنه سرعة البديهة في المناورة، وقد سبق له أن حقق نجاحا ملموسا على مستوى السرايا الاعتراضيةالتي سبقت هذه السرية، ذلكم هو سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ و"عقد له لواء أبيض حمله المقداد بن عمرو البهراني".

وفي الحال انطلقت الدورية في إثر كرز بن جابر ومن معه لعلها تلحق بهم قبل أن يدخلوا منطقة نفوذ قريش وحلفائها الواقعة بعد الخرَّار الذي حذَّرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مجاوزته. ولكن كرزًا تمكن من الإفلات أيضا فلم

---

(١) ماء لبني زهير وبني بدر، وهو واد بالحجاز يصب على الجحفة، وفيه آبار عن يسار الجحفة قريب من خمٍّ، يقع شرق رابغ على قرابة خمسة وعشرين ميلاً. انظر ابن سعد، طبقات، ٢/ ٧، البكري، معجم ما استعجم، ٢/ ٤٩٢، والبلادي، معجم معالم السيرة، ص١١٢.

(٢) كرز بن جابر حسل بن لاحب بن حبيب بن عمرو بن سفيان بن محارب بن فهر القرشي الفهري، كان من رؤساء المشركين قبل أن يسلم، استشهد في الفتح. انظر ابن حجر، الإصابة، ٣/ ٢٩٠ - ٢٩١.

(٣) السرح: المال السائم.

(٤) اختلف أهل المغازي في مهمة هذه السرية، وهل كانت لاعتراض قافلة تجارية لقريش أو لتعقب كرز بن جابر الذي سلب عيرا للمسلمين، فالواقدي وكاتبه ابن سعد ذكرا أن هذه السرية كانت لاعتراض القافلة. انظر الواقدي، مغازي (١/ ١١)، وابن سعد، طبقات (٢/ ٤)، ولم يوضح ابن إسحاق مهمتها. انظر خليفة، تاريخ (٦٢)، وابن هشام، سيرة (٢/ ٦٠٠)، والبيهقي، دلائل (٢/ ١٣ - ١٤)، أما ابن حزم، وابن عبد البر: فقد ذكرا أن هذه السرية كانت لتعقُّب كرز بن جابر الذي أفلت من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. انظر ابن حزم، جوامع (١٠٤)، وابن عبد البر، درر (١٠٦). ولعل ذلك هو الصواب، بناء على الوقت الذي خرجت فيه السرية وقوتها الصغيرة المناسبة لهذه المهمة التي لا تتطلب عددا كبيرا من القوات لأجل خفة الحركة في المسير.

(٥) ابن هشام، السيرة، ٢/ ٦٠٠.

يستطع سعد الإمساك بهم حتى منطقة "الخرَّار من أرض الحجاز" التي رجع منها[1].

٤- غزوة الأبواء أو ودان:

وفي صفر سنة ٢ هـ، الموافق أغسطس سنة ٦٢٣م، خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها بنفسه في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة يعترض عيراً لقريش، حتى بلغ الأبواء[2]، وتعرف بغزوة ودان[3] أيضاً، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية، فلم يلق كيداً، واستخلف فيها على المدينة سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وانتهز النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة الأبواء فرصة ذهبية، فعقد حلفاً عسكرياً مع شيخ بني ضمرة، فقد كان موقع بلاده ذا قيمة عسكرية لاتقدر بثمن في الصراع بين الدولة الإسلامية الناشئة وقريش ولذلك عمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ضمان حيدتهم في حالة وقوع صدام مسلح بين المدينة وأهل مكة، وكانت خطته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى وقعة بدر، أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعات صغيرة من المهاجرين، وخاصة أن هذه القوافل كانت غير مصحوبة بجيش يحميها، وهو أمر لم تفكر فيه قريش حتى تلك اللحظة[4].

وقد نصت المعاهدة علي: «**هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمره، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله، ما بل بحر صوفة وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه**».

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وكان اللواء أبيض وحامله حمزة بن عبد المطلب[5].

---

(١) ابن هشام، السيرة، ٢/ ٦٠٠. السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص٩٢-٩٣.

(٢) الأبواء: قرية من أعمال الفُرُع من المدينة، بينها وبين الجُحْفَة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلًا.

(٣) وَدَّان هي قرية بين مكة والمدينة من نواحي الفُرُع، بينها وبين هرش ستة أميال، وبينها وبين الأبواء نحو من ثمانية أميال، قرية من الجحفة.

(٤) د. عون الشريف، نشأة الدولة الإسلامية، ص٤٣.

(٥) ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، وزارة الأوقاف المصرية - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة، الطبعة: الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ص ١٠٣، الواقدي، المغازي، ص١١.

٥- غزوة بواط[١] :

وكانت غزوة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بواط) في شهر ربيع الأول في السنة الثانية من مهاجره، وخرج في مائتين من أصحابه وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش كان فيها أمية بن خلف في مائة رجل وألفين وخمسمائة بعير، فلم يلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيداً فرجع إلى المدينة.

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ، واللواء كان أبيض، وحامله سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢].

٦- غزوة سفوان أو بدر الأولي:

في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ، الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣م، أغار كرز بن جابر الفهري في قوات خفيفة من المشركين على مراعي المدينة، ونهب بعض المواشي فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جمع من أصحابه لمطاردته، حتى بلغ وادياً يقال له: سفوان من ناحية بدر، ولكنه لم يدرك كرزاً وأصحابه، فرجع من دون حرب، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى.

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة، وكان اللواء أبيض، وحامله علي بن أبي طالب[٣].

٧- غزوة ذي العشيرة[٤]:

- كانت غزوة العشيرة في جمادة الأولى وقيل الآخرة على رأس ستة عشر شهرا من الهجرة (أكتوبر سنة ٦٢٣ م) وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب وكان لواء أبيض واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي وخرج في خمسين ومائة ويقال في مائتين من المهاجرين ممن انتدب ولم يكره أحدا على الخروج وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها، يعترضون عيراً لقريش، ذاهبة إلى الشام، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة، فيها أموال لقريش فبلغ ذا العشيرة، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام، فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى.

---

(١) بواط: هو جبل من جبال جهينة، بناحية رضوى بقرب ينبع.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٦٠١، الواقدي، المغازي، ص١١.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٦٠١.
(٤) العشيرة: موضع بين مكة والمدينة من ناحية ينبع على ساحل البحر الاحمر.

وبالعشيرة كنى رسول الله علي بن أبي طالب أبا تراب وذلك أنه رآه نائما متمرغا في البوغاء [1] فقال: اجلس أبا تراب فجلس، وفي هذه الغزوة وادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة [2].

٨- سرية عبد الله بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى نخلة:

بعد عدد من الغزوات والسرايا الاعتراضية أراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستطلع أخبار قريش ومن ثمَّ وقع تلك الهجمات عليها والتي صارت تهدد تجارة مكة الصيفية.

ففي شهر جمادى الآخرة أو رجب - على خلاف بين أهل المغازي - من السنة الثانية الهجرية جهَّز رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية قوامها ثمانية مهاجرين وأسند قيادتها في أول الأمر إلى أبي عبيدة عامرِ بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي لم يستطع الاعتذار عن المهمة بالكلام تأدبًا وخوفا من معصية خليله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لم يكن يحب مفارقته والبعد عنه، لكنه لم يتمالك نفسه" فلما ذهب لينطلق بكى صبابة [3] إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبًّا فيه وجزعًا من مفارقته فاستبقاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستدعى ابن عمته عبد الله بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكلفه بالمهمة بعد أن أعطاه (كتابًا مكتومًا) وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا [4] وقال: «**لا تكرهَنَّ أحدا من أصحابك على المسير معك**».

امتثل القائد المنضبط للأوامر النبوية العليا فسار مع أصحابه بعد أن استوضح عن الجهة التي تقود للهدف غير المعلن." فلما سار يومين فتح الكتاب فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا حتى تنزل نخلة [5] بين مكة والطائف فترصَّد [6] بها قريشا

---

(١) البوغاء: ماثار من الغبار ودقاق التراب.

(٢) طبقات ابن سعد، ٢/ ١٠.

(٣) الصبابة: الشوق أو قيل: رقته وحرارته.

(٤) وقع في رواية السدي عن ابن عباس أنه أمره أن لا يفتح الكتاب حتى ينزل بطن ملل. الطبري، تفسير (٢/ ٣٤٩)، وتاريخ (٢/ ٤١٣)، وملل: منزل على طريق المدينة إلى مكة على ثمانية وعشرين ميلا من المدينة، وهو واد ينحدر من ورقانجبل مزينة حتى يصب في الفرش. فوق سويقة.

(٥) نخلة اليمانية: هي بستان ابن عامر عند العامة، والصحيح أن نخلة اليمانية هي: بستان عبد الله بن معمر، وبنخلة قتل عامر بن الحضرمي. وهي موضع على ليلة من مكة، وهي التي ينسب إليها بطن نخلة. البكري، معجم ما استعجم، ٤/ ١٣٠٤ - ١٣٠٥.

(٦) ترصد: الترقب.

تعلَّم لنا من أخبارهم". "فلما قرأ الكتاب استرجع[1] وقال: سمعًا وطاعة لله ولرسوله" ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشًا حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

فما كان لهؤلاء الجنود المؤمنين الذين استرخصوا حياتهم في سبيل الله أن يتخلفوا عن أمر رسول الله ص "فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له بحران[2] أضل سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه" ولأنه لم تكن هنالك وسيلة تنقلهما غير البعير الذي أضلاه، ولأن المهمة سرية لا تحتمل التأخير وأهم عنصر فيها الوقت الذي يعتبر أساسيًّا لعنصر المباغتة استأذنا القائد في التخلف عنه في طلبه حتى لا يكونا سببًا في تعطيل مسير السرية الاقترابي نحو الهدف، لعلهما يجدانه فيلحقا بهم فيما بعد، فأذن لهما "فتخلفا في طلبه. ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبًا، وأدمًا[3]، وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبًا منهم" ولكنهم ما لبثوا أن اطمأنوا إليهم بعد الخطة التمويهية الذكية التي قام بها بعض أفراد السرية عندما "أشرف لهم عكاشة بن محصن وقد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا وقالوا: عُمار، لا بأس عليكم منهم".

وفي الحال عقد عبد الله بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أصحابه مؤتمرًا حربيًّا مصغرًا تداولوا فيه الرأي حول القافلة هل يهجمون عليها؟، ويستغلون هذه الفرصة المواتية من غرة عدو طالما أفلت منهم نتيجة حذره الشديد، ولكن الشهر الحرام، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأمرهم بقتال فيه، أيتركونهم لأجل ذلك؟ ولكن هل

---

(١) أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) بحران: جبل يضرب إلى الخضرة والسمرة بين وادي حجر المعروف قديمًا بالسائرة، أو مر عنيب المعروف اليوم بمصر وبوادي رابغ. يقع بحران عند التقائهما يفترقان عنه شرق مدينة رابغ على (٩٠) كيلو وهو في ديار زبيد بن حرب. البلادي، معجم معالم السيرة، ص ٤٠.

(٣) أدمًا: جمع أديم وهو الجلد.

راعت قريش الحرمات عندما طردتهم من ديارهم واستولت على أموالهم، وصدتهم عن سبيل الله؟ إذًا فليعاملوهم بالمثل والبادي أظلم، وأخيرًا خرجوا بقرار جماعي حاسم بالهجوم عليهم و"قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم" فاشتبكوا معهم في قتال سريع خاطف حيث "رمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله، فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش بالعير وبالأسيرين حتى قدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة" فوقف العير والأسيرين "قائلاً لهم: «**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**»"[1].

ويصل الخبر إلى قريش فثارت ثائرتها وشنت هجومًا إعلاميًّا مركزًا تخللته دعايات مغرضة ضد المسلمين استغلت فيها التعاليم الإبراهيمية التي لا زالت بعض آثارها باقية في المجتمع الجاهلي حتى ذلك الوقت من تحريم القتال في الأشهر الحرم وغير ذلك.

"انتهزت قريش هذه الفرصة للتشهير بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالمسلمين وإظهارهم بمظهر المعتدي الذي لا يراعي الحرمات"[2] "قالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال".

ونجحت قريش في خطتها تلك بادىء الأمر حيث "كان لدعايتها صدًى كبير، وأثر ملموس حتى في المدينة نفسها، فقد كثر الجدل والنقاش بين المسلمين أنفسهم، وأنكروا على رجال السرية محاربتهم في الشهر الحرام، واشتد الموقف، ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة" حتى ظن أهل السرية أنهم قد هلكوا وسُقط في أيديهم، ولكن الله عز وجل لم يكن ليدع أولياءه تتقاذفهم أهواء ورغبات أعدائه، فهو قد تكفل بنصرهم. ماديًّا ومعنويًّا، فنزلت الآيات البينات ترد وبقوة على دعايات قريش المغرضة موضحة أنه وإن كان الشهر الحرام لا يحل فيه القتال، ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك الحرمات، وصد عن سبيله ونزل قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾. [البقرة: ٢١٧].

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة، ٢/ ٦٠٣، واللفظ له، والبيهقي، السنن، ٩/ ٥٩، والدلائل، ٣/ ١٩.

(٢) الشريف أحمد إبراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص: ٤٤٥.

وهنا اطمأن المسلمون لسلامة موقفهم ورد الله كيد أعدائهم إلى نحورهم "وقبض رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ العير والأسيرين وبعثت إليه قريش "ليفادوا الأسيرين ، فأبى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقال: «**أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك وعتبة بن غزوان**» ، فلم يفادهما حتى قدم سعد وعتبة ، ففوديا ، فأسلم الحكم بن كيسان وأقام عند رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، ورجع عثمان بن عبد الله بن المغيرة كافرًا "(١) .

وهكذا "يمكن اعتبار سرية عبد الله بن جحش الجسر الذي اجتازه صراع المناوشات بين الإسلام والوثنية صوب القتال المنظم المكشوف الذي بدأته معركة بدر ، ذلك أن هذه السرية كشفت بسبب توغل مقاتليها بعيدًا إلى طريق التجارة المكية اليمنية مدى خطورة الدولة الناشئة على تجارة مكة خاصة ، ووجودها الوثني عامة "(٢) .

إن الجرأة الشديدة التي تمت بها هذه العملية أذهلت قريش التي لم يدر بخلدها أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه يستطيعون التوغل إلى هذه الدرجة في منطقة نفوذها ، وكان التوغل من منطقة بعيدة عن أعين قريش ، وغير متوقعة على الإطلاق ، ومما زاد في دهشتها تلك السَّرية التامة ، والدقة المتناهية التي تمت بها العملية ، حتى إن عيون قريش لم ترصدها (ومخابراتها) لم تستطع معرفة الوجهة التي قصدتها ، وكان ذلك ما أراده رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وخطط له بابتكاره أسلوب الرسائل المكتومة للمحافظة على الكتمان وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تفيده عن حركات المسلمين "ولكتمان أهم عامل من عوامل مبدأ (المباغتة) وهي أهم مبدأ من مبادىء الحرب "(٣) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أثبتت هذه السرية بما لا يدع مجالاً للشك بأن جيش النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قوي يندفع للقيام بأصعب الأعباء والمهمات ، ويتحلى بمزايا القتال ، وبمقدرته على إنجاز الواجبات بكل كفاءة واقتدار مما يدل على روحه المعنوية العالية .

فكم كان موقف قائد السرية رائعًا ، يدل على ضبطه العسكري الجيد بإطاعته

---

(١) انظر: البيهقي ، الدلائل ، ٣/ ٢١ ، ابن حجر ، فتح ، ١/ ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) عماد الدين خليل ، دراسة في السيرة ، ص: ١٧٤ ، بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص ١٠١ .

(٣) خطاب ، الرسول القائد ، ص٩٤ .

الأوامر النبوية العليا دون تردد أو تخاذل، وهو بعيد عن مقر القيادة العليا، فما أن قرأ الكتاب حتى امتثل فورا للأمر ونفذه بحذافيره، معطيًا من نفسه القدوة الحسنة، باثًا في نفوس جنوده الحماس وهو يقول لهم: "من كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[1].

ولا غرو في ذلك، فهو خريج مدرسة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العسكرية.

وكم كان موقف جنوده البواسل عظيمًا، عندما امتثلوا جميعًا لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومضوا له لم يتخلف عنه منهم أحد، على الرغم من تأكيدات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقائد بترك الحرية الكاملة لهم في الاختيار.

ومن هذا المنطلق تتجلى عدالة الإسلام بإعطاء الأفراد الحرية الكاملة في أمر لم تكن فيه ضرورة إلزامية.

إن النتائج التي تحققت في هذه السرية، اعتُبرت أوليات في تاريخ الصراع الإسلامي الوثني، فالقتال الذي دار فيها اعتبر أول مواجهة عسكرية دموية بين الطرفين نتج عنها أول قتيل في الإسلام، وأول أسيرين، وأول غنيمة ينفلها الله عز وجل للمسلمين، كأول تعويض يقبضه المهاجرون عن أموالهم التي استولت عليها قريش في مكة، والشاهد أن ما تمخض عن هذه السرية من أحداث مهمة أصبح سابقة في التاريخ الإسلامي، مما جعلها تستأثر باهتمام كبير ومركز من أهل المغازي حتى اعتبرها بعضهم أول سرية في الإسلام[2].

وقد كان موقف قريش التالي لأحداث هذه السرية مزيجًا من الغضب والخوف في آن واحد، لذلك فكرت وبدهاء شديد استغلال الثغرة الناتجة عن الخطأ التقديري الذي وقع فيه أصحاب السرية علّها تستطيع بذلك أن تشفي غيظها من المسلمين بإثارة العرب ضدهم، فأخذت أبواق دعايتها ترعد، وتبرق تصم الآذان بشتم المسلمين، ووصفهم بأنهم أناس لا يراعون الحرمات، ولا يحترمون التقاليد والأعراف المتعارف عليها بين العرب، وأن ما قاموا به يناقض تعاليمهم التي ينادون بها، وغير ذلك فلما أكثرت قريش وتمادت في غيها نزلت الآيات من فوق سبع سماوات تقريعًا وتوبيخًا لقريش المتشدقة بحماية الحرمات

(١) ابن هشام، سيرة، ٢/ ٦٠٢.

(٢) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٠٢.

ورعاية الأعراف .

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] .

" فحدثهم الله في كتابه أن القتال في الشهر الحرام حرام كما كان ، وأن الذي يستحلون من المؤمنين هو أكبر من ذلك من صدهم عن سبيل الله ، حين يسجنونهم ويعذبونهم ويحبسونهم أن يهاجروا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفرهم بالله ، وصدهم المسلمين عن المسجد الحرام في الحج والعمرة والصلاة فيه ، وإخراجهم أهل المسجد الحرام وهم سكانه من المسلمين وفتنهم إياهم عن الدين .

فمن يدافع عن الحرمات لا بد أن يكون مؤهلا لذلك بأن يكون على الأقل قدوة فيما يدَّعيه ، فهلا قومت قريش سلوكها تجاه من فرض وأمر بهذه الحرمات التي يدَّعون أنهم قَيِّمون عليها ، وهم يشركون معه في العبادة أحجارًا وأوثانًا لا تنفع ولا تضر . لقد كان في هذا التقريع والتوبيخ الإلهي ما يكفي لردع قريش وكبح جماحها وكتم أبواق دعايتها وبالتالي تعريتها أمام الرأي العام العربي .

وكان فيه الطمأنينة والأمان للمسلمين وعلى رأسهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وراحةُ بال لأهل السرية الذين أسعدهم دفاع الله عز وجل عنهم فطمعوا في الأجر فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] فوضعهم الله عز وجل من ذلك على أعظم الرجاء".

أما موقف اليهود بالمدينة فكان ينم عن حقد دفين وكره للمسلمين الذين كانوا يتربصون بهم الدوائر ، فما حصلت تلك المواجهة بينهم وبين قريش حتى تفاءلوا عليهم بها شامتين ، وهم يعتقدون أنها بداية الشرارة لحرب شعواء ؛ يكون فيها القضاء تمامًا على المسلمين القلة في ذلك الوقت بالنسبة لقوة قريش وحلفائها الضاربة في الجزيرة العربية . ولكن الله كبتهم ، فصار فألُهم شؤمًا عليهم عندما أعز الله جنده ونصرهم على أعدائهم من المشركين ، فتفرغوا بذلك اليهود ، وقذف الله الرعب في قلوبهم ، وركبهم الذل والهوان حتى خرجوا من المدينة صاغرين .

ومما يستفاد أيضا: " أن شرع من قبلنا شرع لنا حتى يرد ناسخ ، وذلك أن

تحريم القتال في الأشهر الحرم كان حكماً معمولا به من عهد إبراهيم، وإسماعيل، وكان من حرمات الله، ومما جعله الله مصلحة لأهله، قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧].

فكان رجب أمانا للسالكين إليها مصلحة لأهلها، ونظرا من الله لهم دبَّره، وأبقاه من ملة إبراهيم لم يُغيِّر حتى جاء الإسلام، ثم أباحته آية السيف في سورة براءة؛ فإن براءة كان فيها نبذ العهد العام وهو أن لا يصد أحد عن البيت جاءه، ولا يخاف أحد في الأشهر الحرم، وأن لا يحج مشرك، وإباحة القتال في الأشهر الحرم، أي مع بقاء حرمتها فإنها لم تنسخ، قال تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] فتعظيم حرمتها باق، وإن أبيح القتال[١].

وفيها أيضا دليل على تسويغ الاجتهاد في زمنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن أصحاب السرية قد أدَّاهم اجتهادهم إلى مهاجمة القافلة دونما أمر منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونزل قول الحق سبحانه وتعالى فيه تصويب لاجتهادهم ذلك بعد أن أكثر الناس في تقريعهم ولومهم بناء على دعاية قريش المغرضة ضدهم... والله أعلم[٢]

إن المتأمل في أحداث وتفاصيل حركة السريا والغزوات التي سبقت موقعة بدر الكبري يجد أن أفرادها كلهم كانوا من المهاجرين ليس فيهم واحد من الأنصار يقول ابن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: (والمجتمع عليه أنهم كانوا جميعاً من المهاجرين) ولم يبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحداً من الأنصار مبعثاً حتى غزا بهم بدراً.

وهذا كان أمراً مدروساً له أهدافه منها: إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم أولاً وإحيائها على المستوى الخارجي، وإنهاك الاقتصاد القرشي ومحاصرته، واستعادة بعض الحقوق المسلوبة، وإضعاف قريش عسكرياً، وتدريب الصحابة على إتقان فنون القتال، رصد تحركات قريش، إرهاب العدو الداخلي في المدينة وماحولها، اختبار قوة العدو، وقد استطاعت تلك السرايا والغزوات أن تلفت أنظار قريش ومن تحالف معها إلى قوة المسلمين وقدرتهم على ضرب أية حركة

---

(١) السهيلي، الروض، ٥/ ٨٠ - ٨١، الحلبي، السيرة، ٣/ ١٤٢، والزرقاني، شرح المواهب، ١/ ٣٩٨.

(٢) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص١٠٦.

(٣) الطبقات الكبرى، ٢/ ٦.

مناوئة سواء في الداخل أو الخارج حتى لايحدث أحد نفسه بمهاجمة الدولة الإسلامية ، التي لايتوقف جيشها ليل نهار ، مما أرهب الأفاعي اليهودية ، والقبائل الوثنية المحيطة بالمدينة وجعل الجميع يعمل ألف حساب قبل أن تحدثه نفسه بغزو المدينة ، أو مناصرة أحد من الأعداء عليها[1] .

كما أن القراءة في أحداث وتفاصيل حركة السرايا تظهر الزيادة المضطردة في أعداد وقوة المشاركين في تلك الغزوات والسرايا من المهاجرين ، ومجيئها متتابعة علي فترات زمنية قصيرة ، فلا تكاد السرية أو الغزوة تعود حتى تكون التي بعدها قد خرجت لتحقيق نفس الهدف وهو ضرب مصالح قريش الاقتصادية ، وقطع طرق تجارتها ، وخصوصاً إلى بلاد الشام مما أقلق مضجع قريش وكلفها زيادة عدد حراس قوافلها ، وارتفاع قيمة بضائعها ، عدا الرعب والخوف الذي شعر به رجال القوافل القرشية ، وأصحاب الأموال في مكة على حد سواء[2] .

ولما وادع الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدد من القبائل الواقعة علي تخوم المدينة مثل قبيلة جهينة فإن ذلك أدي إلي تحييد تلك القبائل في الصراع الدائر بين مكة والمدينة والعمل على كسبها في هذا الصراع ، ولهذا الأمر أهميته الكبري إذ أن تلك القبائل كانت ترتبط مع قريش بأواصر وعلاقات تجارية وتتعاون معها ، وعقدت بينهما مُحَالفَات تاريخية سمّاها القرآن الكريم بالإيلاف (في سورة قريش) ، سعت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشام واليمن) .

وبمقتضي هذه المعاهدات ، أمنت الدولة الإسلامية في المدينة من خطر تلك القبائل أولاً ، وثانيا أصبحت خطراً علي قوافل قريش التجارية مما زاد العبأ عليها فأصبحت تلك القبائل تشكل خطراً على تجارة قريش[3] .

كما شعر الأعراب الضاربين حول المدينة بقوة المسلمين ، فلم تعد لهم الجرأة في مهاجمة القوافل التجارية ولا الأموال لأهل المدينة ، وتلاشت قوتهم وقدرتهم علي فرض الإتاوات علي القوافل المارة بهم ، وبالرغم من أن كرز الفهري قد أغار علي قافلة للمسلمين إلا أنه وجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطارده ويجد في طلبه ، وأصبح ذلك درسا قاسيا لكل من تسول له نفسه في مهاجمة المدينة بعد هذه

(١) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص٧٥ .

(٢) د . كامل سلامة ، دولة الرسول من التكوين إلى التمكين ، ص٥٣٢ .

(٣) د . أكرم ضياء العمري ، المجتمع المدني ، ص٢٧ ، مؤنس ، دراسات في السيرة ، ص١٩ .

المطاردة[1].

كما أن السرايا والغزوات التي وقعت قبل موقعة بدر، لم يجر في احد منها سلب الأموال وقتل الرجال إلا بعد ما ارتكبه المشركون في قيادة كرز بن جابر الفهري، فالبداية إنما هي من المشركين مع ما كانوا قد أتوه قبل ذلك من الأفاعيل.

وبعد وقوع ما وقع في سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين وتجسد أمامهم الخطر الحقيقي، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه، وعلموا أن المدينة في غاية من التيقظ والتربص، تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريباً، ثم يقلتوا ويأسروا رجالهم، ويأخذوا أموالهم، ويرجعوا سالمين غانمين، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم، لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيهم، ويأخذوا طريق الصلاح والموادعة - كما فعلت جهينة وبنو ضمرة ازدادوا حقداً وغيظاً، وصمم صناديدهم وكبراؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل: من إبادة المسلمين في عقر دارهم، وهذا هو الطيش الذي جاء بهم إلى بدر[2].

كان هذا النشاط المتدفق من السرايا والبعوث على شكل موجات متعاقبة من جند الإسلام الأوائل دلالة قاطعة على أن دولة الإسلام في المدينة وبقيادة النبي القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت مثل خلية النحل لا تهدأ ولا تكل، عمل دءوب متواصل لتبليغ دعوة الحق إلى الناس جميعًا، وهؤلاء الرجال الأفذاذ جنود الحق الذين لا تأخذهم فيه لومة لائم، والذين كانوا يتسابقون في الخروج تطوعًا وعن طيب خاطر، جنودًا بواسل في هذه السرايا والبعوث غير آبهين بالمشاق والمصاعب والمخاطر، بل كانوا يتحرَّقون لملاقاتها وقهرها طمعًا في الأجر وإعلاء لكلمة الله عزَّ وجلَّ.

كما أن هذه السرايا كانت بمثابة تمرينات عسكرية تعبوية، ومناورات حية لجند الإسلام، استعدادًا للغزوات الكبرى التي كانوا يخوضون غمارها مع قائدهم الأعلى المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حين لآخر.

إننا نرى وبوضوح كامل كيف كان معظم الصحابة رضوان الله عليهم

---

(١) د. عبدالرحمن الشجاع، دراسات في عهد النبوة، ص١٣١.
(٢) الرحيق المختوم، ص ١٩٨.

مشاركين ضمن هذه السرايا والبعوث قوادًا تارة، وجنودًا عاديين أخرى، فكان ذلك من الخطط (والاستراتيجيات) بعيدة المدى التي كان يعدُّها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتثبيت دعائم الدولة الإسلامية، وإعدادًا منظمًا ودقيقًا لجيوش الفتوحات الإسلامية التي ما فتىء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يبشر بها أصحابه بين الفينة والأخرى في أوقات السلم والحرب والخوف والأمن.

إنه بنظرة فاحصة في قوَّاد وجنود تلك السرايا والبعوث تطالعنا أسماء لمعت كثيرًا في تاريخ الفتح الإسلامي فيما بعد. مثل قائد فتوحات الشام، أمين الأمة، أبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص بطل القادسية وفاتح المدائن، والذين كانوا علي إثرهم أمثال سيف الله المسلول أسد العرب خالد بن الوليد، وأرطبون العرب فاتح مصر عمرو بن العاص، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

إذا كانت تلك السرايا بمثابة تدريب عملي حي نابض، بل يمكن اعتبارها بلا مبالغة دورات أركان للقادة الذين فتحوا مشارق الأرض ومغاربها فيما بعد.

إن هذا الكم الوافر من السرايا والبعوث، والطرق التي كانت تتمُّ بها تنقلاتها المسيرية نحو أهدافها، يدل على أن الجندي المسلم في ذلك الوقت كان يتمتع بلياقة بدنية هائلة مع خفة حركة تشحذها روح إيمانية لتضيف إليها العزم والتصميم اللذين يمثلان الروح المعنوية اللازمة، والتي كانت أحد الأسباب الرئيسية للانتصارات المتوالية التي كان يحققها جند الإسلام في كل معركة، ولا شكَّ أن تلك اللياقة القوية لم تأت من فراغ، أو أنها كانت محض صدفة، فالمتتبع للحياة اليومية التي كان يعيشها جند الإسلام الأوائل، يستطيع أن يعرف لماذا كانوا يتمتعون بتلك اللياقة العالية على الرغم من أنهم لم يكونوا جنودًا نظاميين يخضعون بتدريبات عنيفة، وينتظمون في معسكرات إلزامية في مؤسسات عسكرية نظامية كما هو الحال في عالمنا المعاصر.

ولكن بالنظر في حياتهم وتحركاتهم خلال الأربع والعشرين ساعة اليومية يرى أنها كانت عبارة عن تدريب مستمر، فالبرنامج اليومي المنتظم يبدأ مبكرًا مع صلاة الفجر تؤدى جماعة مع قائدهم الأعلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان دائمًا ما يحثهم على أداء هذه الصلاة جماعة وفي وقتها موضحًا لهم ولأمته أنها المفتاح العجيب ليوم مليء بالنشاط والحيوية "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلَّت عقدة، فإن توضأ انحلَّت عقدة، فإن صلَّى انحلَّت

عقده كلها، فأصبح نشيطًا طيِّب النفس، وإلاَّ أصبح خبيث النفس كسلان"[1].

ثم ينطلق كل منهم إلى عمله الذي تتخلله فترات الصلوات الباقية، حتى إذا ما صلَّوا الصلاة الآخرة (صلاة العشاء) ناموا تطبيقًا لأمر القائد الأعلى، حتى إذا ما أخذوا قسطًا وافرًا من النوم أوَّل الليل إلى الثلث الأخير منه، قام معظمهم لأداء صلاة التهجد التي تملأ قلوبهم روحانية وتكسبهم مزيدًا من النشاط لأدائها في وقت يكون الجسم فيه مرتاحًا. فبالإضافة إلى أن حركات الصلاة حركات تدريبية رياضية لكل أعضاء الجسم، فإن في الروحانية المتمثلة في اتصال العبد مع خالقه عزَّ وجلَّ في خشوع وطمأنينة، رياضة إضافية للنفس تملؤها إيمانًا ويقينًا، هذا بالإضافة إلى الاستعداد الدائم واليقظة التامَّة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فكانوا دائمًا يقومون بنشاطات تدريبية مركَّزة تتمثَّل في ركوب الخيل، والسبق، والرماية، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحثُّهم على فعل ذلك، بل ويشاركهم فيه، معطيًا من نفسه القدوة، فكان يبزُّ الشباب من الصحابة قوة ومهارة ونشاطًا وحيوية، فعن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ على ناس يتنضَّلون[2]، فقال: حسن هذا اللهم - مرتين أو ثلاثًا - ارموا وأنا مع ابن الأدرع، فأمسك القوم بأيديهم، فقالوا: لا والله لا نرمي معه وأنت معه يا رسول الله إذًا ينضلنا. فقال: ارموا وأنا معكم جميعًا، فقال: لقد رموا عامة يومهم ذلك ثمَّ تفرقوا على السواء ما نضل بعضهم بعضًا"[3].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يركِّز على تعلم الرماية كثيرًا موضِّحًا أنها خير ما يعدُّ من قوة استعدادية للكفار، عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول وهو على المنبر: «﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ **ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»"[4].

بل وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يشجعهم على الصناعة الحربية المتمثلة في ذلك

---

(١) أخرجه مسلم، انظر الألباني، مختصر صحيح مسلم، ١٠٦.

(٢) التناضل، الترامي للسبق.

(٣) أخرجه أحمد، والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح. ووافقه الذهبي. انظر البنا، الفتح الرباني (١٣/ ١٢٨)، والحاكم، المستدرك (٢/ ١٠٣ - ١٠٤).

(٤) أخرجه مسلم. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/ ٦٤).

الوقت بصناعة الأسهم، وأن الأجر الذي غايته الجنة ينسحب على صاحبها والمتنبل بها، فيروي لنا عقبة، عن رسول الله ﷺ قوله: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه الذي احتسب في صنعته الخير، ومتنبله، والرامي، ارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إليَّ من أن تركبوا، وليس من اللهو إلاَّ ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته زوجته، ورميه بنبله عن قوسه، ومن عُلِّم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها**»[1].

فما أروعه من عصر تمسك فيه الصحابة بالتعاليم القرآنية الربانية، وعضّوا عليها بالنواجذ، وقاموا بتطبيقاتها حرفيًّا في شتى شئون حياتهم، فعزوا واستعلوا على أمم الأرض، شرقًا وغربًا، رغم قلتهم وبساطتهم. وحين ابتعد المسلمون عن تلك التعاليم وألقوا بها وراء ظهورهم ركبهم الذُلُّ والصغار، وتداعت عليهم الأمم من أقطارها بعد أن أصبحوا غثاءً كغثاء السيل.

إن المهمات والأهداف التي أُوكلت للسرايا والبعوث النبوية، كانت تتفاوت تبعًا لاختلاف الظروف المحيطة والحادثة، فكانت السرايا الأولى في معظمها عبارة عن دوريات استطلاعية واستكشافية وجسِّ نبض، ثمَّ تطوَّرت إلى سرايا اعتراضية توقع الرعب والفزع في القوافل القرشية، وذلك قبل غزوة بدر الفاصلة، وعندما قويت شوكة المسلمين بعدها، أصبحت مهمَّة بعض السرايا والبعوث تنصب في تصفية الأفراد من أعداء الدولة الإسلامية المندسين في صفوفها مثل كعب بن الأشرف، والعصماء بنت مروان، وأبي عفك، فكان في قتل كعب ردعًا لليهود، وقتل العصماء وأبي عفك ردعًا للمشركين والمنافقين في المدينة.

وعندما انقلبت الأمور (الاستراتيجية) لغير صالح المسلمين بعد أحد، وعندما طمع الأعراب في خيرات المدينة، واستهانوا بالمسلمين لدرجة أنهم غدروا ببعض البعوث التعليمية كما في الرجيع وبئر معونة، غيَّر تبعًا لذلك رسول الله ﷺ (استراتيجيته) العسكرية، فانتقل بالسرايا من قريش إلى الأعراب لتأديبهم وردعهم، ولكن بطريقة صارمة وسريعة ومباغته.

وكان أهم ما يميِّز تلك السرايا هو الهجوم التعرضي، وذلك بأن يتم فيها مهاجمة الأعراب قبل تحشُّدهم وجمع أمرهم بالهجوم على المسلمين.

---

(١) أخرجه أحمد، والحاكم وقال: صحيح. ووافقه الذهبي. انظر البنا، الفتح (١٣/ ١٢٩)، والحاكم، المستدرك (٢/ ١٠٤).

وهكذا ظلت السرايا والبعوث النبوية تؤدي دورها وتقوم بمهامها الخاصة لخدمة أهداف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القريبة والبعيدة المدى، فمن دوريات قتالية، إلى سرايا تعقبية، وأخرى تمويهية، حتى إذا ما توطَّد الأمر للمسلمين بعد فتح مكة، اهتم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإزالة كل ما يمتُّ للوثنية بصلة، فبعث السرايا والبعوث من مكة لتحطيم بقية رموز الشرك والوثنية، فانطلقت السرايا لتحطيم العزى، ومناة، واللات وسواع، وذا الخلصة، وغيرها من الأصنام والطواغيت الوثنية.

ثم انطلقت السرايا الدعوية إلى كافة أرجاء الجزيرة العربية، تدعو إلى عبادة الله وحده وتزيل من طريق الدعوة كل العراقيل والقوى التي تقف في وجه الدعوة الإسلامية وهي خاضعة للضبط العسكري النبوي، منفذة لكل الأوامر النبوية العليا، والتي يمكن اعتبارها قمة أهداف وممارسات الحرب الفروسية المشرفة التي لم يشهد لها العالم مثيلاً من قبل ولا من بعد، والتي هي أحد دعائم الدعوة الإسلامية، بل أحد أهمِّ الأسباب التي دعت معظم سكان المناطق التي كانت تمرُّ بها هذه السرايا النبوية، ثمَّ الجيوش الراشدية الفاتحة بعد ذلك إلى الدخول طواعية وبحب غامر ورغبة ملحة في الإسلام.

لقد أدهشت النتائج السريعة الإيجابية لحركة الفتوح الإسلامية جميع المحللين على اختلاف مشاربهم وديانتهم، ولكن المحلِّل المنصف المتجرد ستزول دهشته حتمًا عندما يقرأ تلك التعاليم والوصايا النبوية لقوَّاد وجنود السرايا والبعوث والتي هي نواة حركة الفتوح الإسلامية، وأصبح الذين شاركوا بالأمس في السرايا والبعوث مشاركين اليوم على رأس تلك الجيوش الفاتحة مقتدين نفس النهج، سائرين على نفس الطريق الذي رسمه لهم قائد الأمة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تلك الأوامر والتعاليم النبوية صارت تتكرر على ألسنة الخلفاء وقادة جيوش الفتوح فيما بعد.

والآن ما هي تلك الوصايا؟

عن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، أو خلال فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعهم**

إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما للمهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلاَّ أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا» [1].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعث جيشًا قال: «انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلُّوا وضموا غنائمكم، وأصلحوا، وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين» [2].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»[3].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعث جيشًا أو سرية يقول: «إذا رأيتم مسجدًا أو سمعتم مؤذنًا فلا تقتلوا أحدًا» [4].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعث جيوشه قال: «اخرجوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع» [5].

---

(١) رواه مسلم، الصحيح (٤/ ٨ - ٩).

(٢) رواه أبو داود. انظر شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود (٧/ ٢٧٤).

(٣) رواه مسلم، الصحيح (٤/ ٩).

(٤) رواه الترمذي انظر المباركفوري، تحفة الأحوذي (٥/ ١٥٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٥) رواه أحمد. انظر البنا، الفتح الرباني (١٤/ ٥٢).

وعن عبد الرحمن بن عائذ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعث جيشًا قال: «**تألفوا الناس وتأتوهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم إلى الإسلام؛ فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر إلا تأتوني بهم مسلمين أحبُّ إليَّ من أن تقتلوا رجالهم وتأتوني بنسائهم**»[1].

وقد كان المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتمنى ألا يتخلف عن أي سرية أو بعث يبعثه للجهاد في سبيل الله تعالى، وإعزاز دينه، ولكنه كان يفعل ذلك اضطرارًا لدرء المشقة عن المسلمين، وها هو يعتذر عن ذلك، موضحًا حكمة بعوثه وسراياه فيقول: «**والذي نفسي بيده، لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة فيتبعوني، ويشق أن يقعدوا بعدي، والذي نفسي بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل**»[2].

فيا لروعة هذا الاعتذار وسُموِّه، والذي يوضح بطريق غير مباشر، المنزلة العظيمة للشهيد عند الله عزَّ وجلَّ لدرجة أن المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتمنى أن يقتل شهيدًا في سبيل الله عدة مرات[3].

غزوة بدر الكبري:

كانت غزوة بدر الكبرى تطبيقًا عمليًّا وضحت به مشروعية القتال في الإسلام وهي الدفاع عن النفس ورد الظلم والعدوان، كما كانت الغزوات التي جاءت بعدها في حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دفاعًا عن النفس وردًّا للظلم وتأمينًا لطريق الدعوة حتى تقف في سبيلها الحواجز، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

لم يكن المسلمون قد اشتبكوا مع قريش بشكل حاسم حتى تاريخ هذه الغزوة، وذلك ما أتاح لقريش مواصلة إرسال قوافلها التي كانت تمثل شريان الحياة لاقتصادها، ويلاحظ أن قريشا استشعرت الخطر فأخذت تهيىء لقوافلها حراسات شديدة وكثيفة، وتنوع الطرق التي تسلكها. وكان المسلمون يرصدون تحرك القوافل القرشية وتتجمع لديهم الأخبار عن محتواها وبضاعتها وحراساتها

---

(١) انظر الشامي، سبل (٦/ ١٧).

(٢) رواه البخاري: الصحيح (٣/ ٢٠٣).

(٣) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص٦١ - ٦٨.

والطرق التي تسلكها[١].

وكانت البداية أنه بلغ المسلمين تحرك قافلة تجارية كبيرة من الشام وهي تحمل أموالا عظيمة [٢] لقريش يقودها أبو سفيان ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلا [٣]، فأرسل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبس بن عمرو [٤] لاستطلاع أخبار القافلة، فلمّا عاد بسبس بخبرها ندب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه للخروج متعجلا بمن كانوا على استعداد دون أن ينتظر تهيؤ الآخرين ممن أبدى رغبة في الخروج، حرصا منه على ألّا تفوتهم القافلة [٥]، وكلّف عبد الله بن أم مكتوم بالصلاة بالناس في المدينة عند خروجه إلى بدر، ثم أعاد أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة وعيّنه أميرا عليها[٦].

أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اثنين من أصحابه وهما عدي بن الزغباء، وبسبس ابن عمرو [٧] إلى بدر طليعة للتعرف على أخبار القافلة، فرجعا إليه بخبرها [٨]، وقد حصل خلاف بين المصادر الصحيحة حول عدد الصحابة الذين رافقوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوته هذه إلى بدر، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمائة» [٩]، يذكر مسلم بأنهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا [١٠]، في حين

---

(١) عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الرابعة، ١/ ٢٨٦.

(٢) قدرت قيمة البضائع التي تحملها القافلة بخمسين ألف دينار، انظر: الواقدي - المغازي ١/ ٢٠٠، البلاذري - أنساب الأشراف، ١/ ٣١٢.

(٣) ابن حزم، جوامع السيرة ص ١٠٧.

(٤) ورد الإسم في صحيح مسلم بصيغة التأنيث مصحّفا إلى "بسيسة"، وصححه ابن حجر في الإصابة ١/ ١٥١.

(٥) مسلم - الصحيح، شرح النووي ١٢/ ٨٤ حديث ١١٥٧.

(٦) الحاكم - المستدرك، ٣/ ٦٣٢. ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٢٦٠.

(٧) انظر: ابن سعد، الطبقات ٢/ ٢٤.

(٨) ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٢٤ بإسناد صحيح.

(٩) فتح الباري ٧/ ٢٩٠ - ٢٩٢.

(١٠) مسلم - الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٨٤) وتذكر الرواية وهي عن طريق الزبير بن العوام وقد شهد الموقعة بأن منهم مائة من المهاجرين والباقي من الأنصار، في حين ذكر البراء بن عازب أن المهاجرين كانوا يزيدون على الستين وأن الأنصار يزيدون على أربعين ومائتين (فتح الباري ٧/ ٢٩٠ - ٢٩٢، ٣٢٤ - ٣٢٦).

ذكرت المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين [١] .

غير أن علينا أن نتذكر بأن قوات المسلمين هذه التي صاحبت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوته إلى بدر لا تمثل الطاقة العسكرية القصوى للحكومة النبوية ، ذلك أنهم إنما خرجوا لاعتراض قافلة تجارية واحتوائها ، يدل على ذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمسلمين: «**هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلّ الله ينفلكموها**» [٢] ، ولم يكونوا يعلمون أنهم سوف يواجهون قوات قريش وأحلافها مجتمعة للحرب والتي بلغ تعدادها ألفا [٣] ، معهم مائتا فرس يقودونها إلى جانب جمالهم ، ومعهم القيان [٤] يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه [٥] ، في حين لم يكن مع القوات الإسلامية من الخيل إلا فرسان ، وكان معهم سبعون بعيرا يتعاقبون ركوبها [٦] .

بلغ أبا سفيان خبر مسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه من المدينة بقصد اعتراض قافلته واحتوائها ، فبادر إلى تحويل مسارها إلى طريق الساحل ، في نفس الوقت الذي أرسل فيه إلى قريش يستنفرها لإنقاذ قافلتها وأموالها . وكان وقع ذلك شديدا على قريش ، التي اشتاط زعماؤها غضبا لما يرونه من امتهان للكرامة ، وتعريض للمصالح الاقتصادية للأخطار إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاط لمكانة قريش بين القبائل العربية الأخرى ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية [٧] .

وأرسل أبو سفيان بعد ذلك إلى زعماء قريش وهم بالجحفة برسالة أخبرهم فيها بنجاته والقافلة ، وطلب منهم العودة إلى مكة ، وذلك أدّى إلى حصول انقسام حاد في آراء زعماء قريش ، فقد أصر أغلبهم على التقدم نحو بدر من أجل تأديب

---

(١) مثلا: ابن كثير – البداية والنهاية ٣/ ٣١٤ ، وكذلك كتب الطبقات لابن سعد وخليفة بن خياط العصفري .

(٢) ابن هشام – السيرة ٢/ ٦١ بسند صحيح إلى عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – .

(٣) مسلم – الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٨٤) .

(٤) القيان: جمع قينة ، وهي: الجارية المغنية .

(٥) ابن كثير – البداية ٣/ ٢٦٠ .

(٦) أحمد – المسند ١/ ٤١١ ، والحاكم – المستدرك ٣/ ٢٠ . الهيثمي – مجمع الزوائد ٦/ ٦٩ ، ابن كثير – البداية والنهاية ٣/ ٢٦٠ ، ابن حزم – جوامع السيرة ص ١٠٨ .

(٧) ابن حجر – فتح الباري ٧/ ٢٨٣ ، ابن هشام – السيرة ٢/ ٢٩٨ ، ٣١١ بأسانيد حسنة .

المسلمين وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية [١] وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش وسلطانها. وقد انشق بنو زهرة [٢]، ومن كان مع قريش من بني هاشم [٣]. وعادوا إلى مكة، أما غالبية قوات قريش وأحلافهم فقد تقدمت حتى وصلت إلى منطقة بدر [٤].

بلغت أخبار تجمع قريش وتقدمهم تجاه منطقة بدر إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في طريقه إلى بدر، فاستشار أصحابه في الأمر [٥]، وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش حيث إنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا اقناع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوجهة نظرهم، وقد صور القرآن الكريم موقفهم وأحوال الفئة المؤمنة عموما في قوله تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٥ - ٨].

ترحيب الصحابة بمواجهة قريش:

وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاقاة العدو [٦]، وكانت لهم مواقف مشهودة في تأييد فكرة الخروج لقتال قريش، منها موقف المقداد بن الأسود، فيروي عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عُدِلَ به [٧]: أتى النبي

(١) ابن حجر - فتح الباري ٧/ ٢٨٣، ابن هشام - السيرة ٢/ ٢٩٨، ٣١١ بأسانيد حسنة.
(٢) كان عدد بني زهرة في قوات قريش حوالي ثلاثمائة مقاتل، ابن هشام - السيرة ٢/ ٢١٢.
(٣) كانوا بقيادة طالب بن أبي طالب، وكانت قريش قد اتهمتهم بأن هواهم مع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابن هشام - السيرة ٢/ ٣١١ - ٣١٢.
(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ١/ ٢٨٨.
(٥) البخاري - الصحيح (حديث ٣٩٥٢)، مسلم - الصحيح (حديث ١٧٧٩)، أحمد - الفتح الرباني ٢١/ ٢٩ - ٣٠، ابن أبي شيبة - المصنف ١٤/ ٣٥٥، ابن كثير - البداية ٣/ ٢٦٢ - ٦٣.
(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري - حديث ٣٩٥٢)، أحمد - المسند ٥/ ٢٥٩، ابن هشام - السيرة ٢/ ٣٠٥.
(٧) المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنه كان لو خير بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يدعو على المشركين فقال: لانقول كما قال قوم موسى: ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة، ٢٤]. ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك.

فرأيت الرسول أشرق وجهه وسره [١] وفي رواية [٢] قال المقداد: يارسول الله، لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن امضي ونحن معك، فكأنه سُرى عن رسول الله.

وبعد ذلك عاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أشيروا عليّ أيّها النّاس**» وكان إنما يقصد الأنصار، لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خارج المدينة. وقد أدرك الصحابي سعد بن معاذ، وهو حامل لواء الأنصار، مقصد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك فنهض قائلا: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟» قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أجل**»، قال: «لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر على بركة الله» [٣].

سرّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مقالة سعد بن معاذ، ونشّطه ذلك، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سيروا وأبشروا، فإنّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطّائفتين. والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم**» [٤].

كانت كلمات سعد مشجعة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وملهبة لمشاعر الصحابة فقد رفعت معنويات الصحابة وشجعتهم على القتال إن حرص النبي

مايقابل ذلك لكان حصوله أحب إليه.

(١) البخاري، كتاب المغازي، ٧/ ٢٨٧.

(٢) البخاري، كتاب التفسير، ٨/ ٢٧٣.

(٣) مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٠٤ (حديث ١٧٧٩)، ابن كثير - البدآية ٣/ ٣٥١.

(٤) ابن كثير - البداية ٣/ ٢٦٢ - ٣ بإسناد صحيح، وذكر الحافظ ابن كثير أن له شواهد في وجوه كثيرة إذ رواه البخاري والنسائي والإمام أحمد (فتح الباري - ٧/ ٢٨٧)، وأحمد - المسند ٥/ ٢٥٩ (حديث ٣٦٩٨).

على استشارة أصحابه في الغزوات يدل على تأكيد أهمية الشورى في الحروب بالذات، ذلك لأن الحروب تقرر مصير الأمم، فأما إلى العلياء، وأما تحت الغبراء[1].

تنظيم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجيش:

نظّم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جنده، بعد أن رأى طاعة الصحابة وشجاعتهم واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض وسلمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين إلى سعد بن معاذ، وعلي بن أبي طالب، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة[2].

وقام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين وبينما هما يتجولان في تلك المنطقة لقيا شيخاً من العرب، فسأله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جيش قريش، وعن محمد وأصحابه، ومابلغه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أخبارهم: فقال الشيخ لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما. فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أخبرتنا أخبرناك**» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «**نعم**». فقال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش المسلمين - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً - ثم قال الشيخ: لقد أ خبرتكما عما أردتما، فأخبراني: ممن أنتما؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نحن من ماء**». ثم انصرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبوبكر عن الشيخ، وبقي هذا الشيخ يقول: مامن ماء؟ أمن ماء العراق[3].

وتورية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إجابته على سؤال الشيخ (ممن أنتما؟ بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نحن من ماء**». وهو جواب يقتضيه المقام، فقد اراد به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتمان أخبار جيش المسلمين عن قريش، وفي انصرافه فور استجوابه كتمان - أيضاً - وهو دليل على مايتمتع به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثم وقف عنده لكان هذا سبباً في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من ماء**»[4].

---

(١) أبو فارس، غزوة بدر الكبرى، ص٣٧.
(٢) ابن القيم - زاد المعاد ٢/ ٨٥.
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).
(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).

وهذه هي صفة الكتمان والسرية التي حافظ عليها الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عامة غزواته.

وحصل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على معلومات كثيرة عن موقع الجيش المكي، ومن به من الأشراف، واستنتج عدد أفراده من معرفته لعدد ما ينحر لهم يوميًا من الجمال، فقد أرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوّام ليعرفا الأخبار، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين فأتوا بهما إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لهما: «**أخبراني عن جيش قريش**»، فقالا هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال لهما: «**كم القوم؟**» قالا: كثير. قال: «**ماعدتهم؟**» قالا: لا ندري. قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كم ينحرون كل يوم؟**» قال: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**القوم مابين التسعمائة والألف**» فقال لهما: «**فمن فيهم من أشراف قريش؟**» فذكرا عتبة بن ربيعة وشيبة وأباجهل وأمية بن خلف في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أصحابه قائلاً: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**»[1].

-: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾.

وفي ليلة بدرأنزل الله تعالى على المؤمنين نعاسا أمنهم وأراحهم، ومطرا طهرهم به، وأذهب عنهم رجس الشيطان وربط على قلوبهم وثبّت به أقدامهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

لقد امتن الله المسلمين يوم بدر بأن أنزل عليهم النعاس والمطر وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة في مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه ولم يتخذوا له عدته.. فإذا النعاس يغشاهم، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم؛ والطمأنينة تفيض على قلوبهم... ولقد وقعت هذه المعجزة بشكل واضح للمسلمين المجهودين في غزوة بدر... وامتن الله عليهم بها. وهو

(١) مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٠٤، كما ورد في السيرة النبوية لابن هشام برواية ابن إسحاق.

يقول: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

لقد كانت هذه الغشية، وهذه الطمأنينة، مدداً من أمداد الله للعصبة المسلمة يوم بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾..

ولفظ: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ ولفظ: ﴿النُّعَاسَ﴾ ولفظ: ﴿أَمَنَةً﴾.. كلها تشترك في إلقاء ظل لطيف شفيف؛ وترسم الظل العام للمشهد، وتصور حال المؤمنين يومذاك، وتجلي قيمة هذه اللحظة النفسية الفاصلة بين حال للمسلمين وحال.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾..

فهي قصة مدد آخر من أمداد الله للعصبة المسلمة، قبيل المعركة.

ففي هذه الليلة - وقبل إنفاذ مشورة الحباب بن المنذر - كانت هذه الحالة التي يذكر الله بها العصبة التي شهدت بدراً.. والمدد على هذا النحو مدد مزدوج: مادي وروحي. فالماء في الصحراء مادة الحياة، فضلاً على أن يكون أداة النصر. والجيش الذي يفقد الماء في الصحراء يفقد أعصابه قبل أن يواجه المعركة. ثم هذه الحالة النفسية التي صاحبت الموقف ووسوس بها الشيطان! حالة التحرج من أداء الصلاة على غير طهر لعدم وجود الماء (ولم يكن قد رخص لهم بعد في التيمم، فقد جاء هذا متأخراً في غزوة بن المصطلق في السنة الخامسة).

وهنا تثور الهواجس والوساوس، ويدخل الشيطان من باب الإيمان ليزيد حرج النفوس ووجل القلوب! والنفوس التي تدخل المعركة في مثل هذا الحرج وفي مثل هذا القلق تدخلها مزعزعة مهزومة من داخلها.. وهنا يجيء المدد وتجيء النجدة.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾..

ويتم المدد الروحي بالمدد المادي؛ وتسكن القلوب بوجود الماء، وتطمئن الأرواح بالطهارة؛ وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال[1].

روى ابن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ

(١) انظر الظلال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [سورة الأنفال، آية ١١].

الشَّيْطَانِ﴾ قال: نزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني حين سار إلى بدر والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دِعْصَةَ - أي كثير مجتمعة - فأصاب المسلمين ضعف شديد، والقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليكم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم [1].

الوصول إلي بدر ومشورة الحباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وبعد هذا الفيض الإلهي سار الحبيب محمد بالجيش الإسلامي حتى وصل إلى بدر واستطلعوا الموضع قبل وصول قوات قريش، وهنا قام الحباب بن المنذر وقال: يارسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**». قال: يارسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يارسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم - أي جيش المشركين - فننزله ونغوِّر - نخرب - ماوراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون[2] فأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برأي الحباب بن المنذر وفعل بما أشار به ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو فنزل عليه ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار [3].

هذا هو الموقف العملي من حياة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمع عظمة وجلالة قدر الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يمنع ذلك من أن يدلو كل فرد في جيشه بدلوه في وضع الخطة الحربية للجيش مادام ذلك يصب في مصلحة الجميع، فلم يجل بخطر الحباب احتمال غضب القائد الأعلى، ثم حصول مايترتب على ذلك الغضب من تدني سمعة ذلك الناصح بخلاف رأي القائد وتأخره في الرتبة وتضرره في نفسه أو ماله.

وهذه الحرية التي ربىّ عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه مكنت

---

(١) تفسير الطبري، ٩/ ١٩٥.

(٢) ابن حجر - الإصابة ١/ ٣٠٢ بسند حسن إلى عروة ولكنه مرسل.

(٣) ابن هشام - السيرة ٢/ ٣١٢ - ٣١٣ وإسناده مرسل موقوف على عروة كما في المصدر السابق، والحاكم - المستدرك ٣/ ٤٤٦ - ٤٤٧، قال الذهبي عنه: حديث منكر، وفي البداية والنهاية ٣/ ٢٩٣: إسناده منقطع.

مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد والمنطق الرشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحاً باهراً وإن كان حديث السن لأنه لم يكن يفكر برأيه المجرد أو آراء عصبة مهيمنة عليه قد تنظر لمصاحلها الخاصة قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامة، وإنما يفكر بآراء جميع أفراد جنده، وقد يحصل له الرأي السديد من أقلهم سمعة وأبعدهم منزلة من ذلك القائد، لأنه ليس هناك مايحول بين أي فرد منهم والوصول برأيه إلى قائد جيشه [1].

وهناك مشهد آخر من مشاهد العظمة في معركة بدر، ذلك الأدب الجم الذي يتعامل به الصحابة رضوان الله عليهم مع الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد جعل هذا الأدب الحباب يتقدم إلي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقدم مشورته في صورة استفهام ويقول: "أرايت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولانتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟" فإن كان الوحي هو الذي اختار هذا المنزل، فلأن يقدم فتقطع عنقه أحب إليه من أن يلفظ بكلمة واحدة، وإن كان الرأي البشري فلديه خطة جديدة كاملة باستراتيجية جديدة.

إن هذا الموقف ليشي بعظمة هذا الجوهر القيادي الفذ الذي يعرف أين يتكلم ومتى يتكلم بين يدي قائده، إن هذه النفسية الرفيعة، عرفت أصول المشورة، وأصول إبداء الرأي، وأدركت مفهوم السمع والطاعة، ومفهوم المناقشة، ومفهوم عرض الرأي المعارض لرأي سيد ولد آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وتبدو عظمة القيادة النبوية في استماعها للخطة الجديدة، وتبني الخطة الجديدة المطروحة من جندي من جنودها، أو قائد من قوادها [2].

وفي صباح السابع عشر من شهر رمضان نظّم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشه على هيئة صفوف [3].

بناء العريش:

وبعد نزول النبي والمسلمين معه على أدنى ماء بدر من المشركين، اقترح سعد

---

(١) الحميدي، التاريخ الإسلامي، ٤/ ١١٠.

(٢) التربية القيادية، ٣/ ٢١.

(٣) أحمد – المسند، وهو أسلوب جديد لم تعتد عليه العرب قبل ذلك يقلل من خسائر الجيش ويعوض عن قلة العدد أمام العدو ويمكن القيادة من إحكام السيطرة. انظر: محمود شيت خطاب – الرسول القائد ص ٧٨ – ٧٩.

بن معاذ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بناء عريش[1] له يكون مقراً لقيادته ويأمن فيه من العدو، وكان مما قاله سعد في اقتراحه: (يانبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ثم نلقي عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك، أقوام، يانبي الله، مانحن بأشدَّ لك حبًّا منهم، ولو ظنُّوا أنك تلقى حرباً متخلفوا عنك يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك) فأثنى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيراً ودعا له بخير، ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تلٍّ مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

وقد ثبت أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج من مقر قيادته - العريش - وهو يقرأ قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[3].

وقد أثنى الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سعد ودعا له بخير، ولأنه قدر الظروف وعرف أن مكان القائد هو الإشراف والتوجيه فلا ينبغي أن يتعرض للأخطار، لأن في حياته حياة الأمة وكيانها وكرامتها، ثم بني العريش للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يكون في مأمن من العدو إذا لم يكن النصر في جانب المسلمين، وهكذا الإخلاص والإيثار: إخلاص الجندي الأمين لقائده الأمين، وإيثار المؤمن لنبيه على نفسه.

وبمثل هذا الإخلاص والإيثار مَنَّ الله على المسلمين، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، وإن في ذلك لعبرة...

دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وأكثر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدعاء، واستغاث بالله تعالى، عن عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لمّا كان يوم بدر، قال: نظر النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أصحابه وهم ثلثمائة ونيّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القبلة، ثمّ مدّ يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثمّ قال: «**اللّهمّ أنجز ما وعدتني، اللّهمّ أت ما وعدتني، اللّهمّ إنّك إن تهلك هذه العصابة من أهل**

(١) شبه خيمة يكون مقراً للقيادة وظلاً للقائد.
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٣).
(٣) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٨٧).

الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدا»، قال: فما زال يستغيث ربّه - عزّ وجلّ - ويدعوه حتّى سقط رداؤه: فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّه، ثمّ التزمه من ورائه، ثمّ قال: يا نبيّ الله، كفاك مناشدتك ربّك[1]، فإنّه سينجز لك ما وعدك، وأنزل الله - عزّ وجلّ -: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[2] [الأنفال: ٩][3].

هذا درس مهم لكل قائد أو حاكم أو زعيم أو فرد في التجرد من النفس وحظها، والخلوص واللجوء لله وحده والسجود والجثي بين يدي الله سبحانه لكي ينزل نصره ويبقى مشهد نبيه، وقد سقط رداؤه عن كتفه وهو ماد يديه يستغيث بالله، يبقى هذا المشهد محفوراً بقلبه ووجدانه، يحاول تنفيذه في مثل هذه الساعات، وفي مثل هذه المواطن، حيث تناط به المسؤولية وتلقى عليه أعباء القيادة[4].

ومن فوائد الاستغاثة:

- فيها صرف الهمّة كلّها إلى الله المتصرّف في الكون كلّه بكمال قدرته واليقين بأنّ الخلق ينفّذون قدره وأمره.

- الاستغاثة في الأمور الّتي لا يقدر عليها إلّا الله من التّوحيد؛ فهي دليل الإيمان به وحده.

- بالاستغاثة تقوى عزيمة الإنسان لمعرفته بأنّ من يستغيث به قادر على إغاثته.

- الاستغاثة سبب من أسباب النّصر كما حدث للمسلمين يوم بدر.

- الاستغاثة تقوّي الرّوح المعنويّة للمستغيث وتعلمه بأنّ الفرج قريب.

- الاستغاثة مجلبة للخير، وبها يعمّ الخير للعباد والبلاد.

تنظيم الصفوف:

وفي صباح السابع عشر من شهر رمضان نظّم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشه

---

(١) منا شدتك ربك: المناشدة السؤال، مأخوذة من النشيد وهو رفع الصوت، هكذا وقع لجماهير رواه مسلم، ولبعضهم: كفاك، وكلّ بمعنى واحد.

(٢) مردفين: متتابعين.

(٣) البخاري - الفتح ٧ (٣٩٥٣) مختصرا، مسلم (١٧٦٣) واللفظ له.

(٤) التربية القيادية، ٣/ ٣٦.

على هيئة صفوف [1]، وهو أسلوب جديد في مقتالة أعداء الله تعالى، لم يكن معروفاً من قبل حتى قاتل به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أسلوب جديد لم تعتد عليه العرب قبل ذلك، وفيه يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصلاة وتقل هذه الصفوف أو تكثر تبعاً لقلة المقاتلين أو كثرتهم، وتكون الصفوف الاولى من أصحاب الرماح لصّد هجمات الفرسان وتكون الصفوف التي خلفها من أصحاب النبال، لتسديدها من المهاجمين على الأعداء، وهذا الأسلوب في القتال يقلل من خسائر الجيش ويعوض عن قلة العدد أمام العدو ويمكن القيادة من إحكام السيطرة[2].

وأمر الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة برمي الأعداء إذا اقتربوا منهم، لأن الرمي يكون أقرب إلى الإصابة في هذه الحالة، وأبقي للأسلحة حتى لا يستخدمونها فيما لا طائل منه وبالاقتصاد في الرمي وكانت توجيهات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم. ولا تسلّوا السّيوف حتّى يغشوكم**» [3].

وعدل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفوف المسلمين، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب، فقد كان في يديه قِدْح يعدل به، وكان سَوَاد بن غَزِيَّة مُسْتَنْصِلًا من الصف، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: «**استو يا سواد**»، فقال سواد: يا رسول الله، أوجعتني فأقدني، فكشف عن بطنه وقال: «**استقد**»، فاعتنقه سواد وقبل بطنه، فقال: «**ما حملك على هذا يا سواد؟**» قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخير [4].

قلما نرى في تاريخ الحروب صورة تعبر عن العدل بين القادة والجنود، فالتاريخ الإنساني حافل بصور استبداد القادة العسكريين وظلمهم للجنود.. أما محمد فنراه في أرض المعركة يقف أمام جندي من جنوده ليقتص الجندي منه [5]

ثم عبأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشه، وحثهم علي القتال امتثالاً لقوله

---

(١) أحمد – المسند.
(٢) محمود شيت خطاب – الرسول القائد ص ٧٨ – ٧٩.
(٣) أبو داود – السنن ٤/ ٤٩.
(٤) ابن هشام – (ج ١ / ص ٦٢٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢٨٣٥.
(٥) محمد مسعد ياقوت، الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية، ص٥٩.

تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

ونادي الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصحابه وقال لهم: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**»، فقال عمير بن الحمام الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يارسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «**نعم**»، قال: بخ بخ[1] فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مايحملك على قولك: بخ بخ؟**» قال: لاوالله يارسول الله إلا رجاءة[2] أن أكون من أهلها قال: «**فإنك من أهلها**». فأخرج ثمرات من قرنه[3] فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل ثمراتي هذه إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل[4].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبشرهم بقتل صناديد المشركين، ويحدد مكان قتل كل واحد منهم، فروي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: كنّا مع عمر بين مكة والمدينة، فتراءينا الهلال. وكنت رجلا حديد البصر[5]. فرأيته. وليس أحد يزعم أنه رآه غيري. قال فجعلت أقول لعمر: أما تراه؟ فجعل لا يراه. قال يقول عمر: سأراه وأنا مستلق على فراشي. ثمّ أنشأ يحدّثنا عن أهل بدر فقال: إنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس. يقول: هذا مصرع فلان غدا، إن شاء الله قال فقال عمر: فو الّذي بعثه بالحقّ ما أخطؤوا الحدود الّتي حدّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.[6]

كما كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبشر المؤمنين بالنصر وتأييد الملائكة لهم قبل بدء المعركة مما يرفع من روحهم القتالية وينشطهم فيقول: «**أبشر أبا بكر هذا جبريل معتجر بعمامة صفراء آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض**»[7].

وأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه صبيحة يوم المعركة أنه: «**لا يتقدّمنّ أحد**

---

(١) بخ بخ: كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير. وتقال بالسكون وبالجر والتنوين (بخ بخ).

(٢) إلا رجاءة: أي والله ما فعلته لشيء إلا رجاء أن أكون من أهلها.

(٣) قرنه: أي جعبة النشاب.

(٤) مسلم - الصحيح ٣/ ١٥٠٩ - ١٥١٠ (ح ١٩٠١).

(٥) حديد البصر: أي نافذه ومنه قوله تعالى: (فبصرك اليوم حديد).

(٦) رواه مسلم برقم (٢٨٧٣).

(٧) رواه البيهقي في دلائل النبوة، ٣/ ٣٨.

منكم إلى شيء حتّى أكون أنا دونه» [1]، فدنا المشركون فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قوموا إلى جنّة عرضها السّماوات والأرض» [2].

ووقف المسلمون بانتظار المعركة هادئي الأنفاس منيري الآفاق، تغمر الثقة قلوبهم، تنتابهم الراحة النفسية؛ آملين أن يروا بشائر ربهم بعيونهم، وأن يتحقق موعود الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقبل أن تبدأ المعركة أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستنفذ كل وسائل الصلح والسلام قبل أن يخوض المعركة، فما أرسل إلا رحمة للعالمين، فأراد أن يبادر بمبادرة للسلام ليرجع الجيشان إلى ديارهما، فتحقن الدماء، أو ليقيم الحجة على المشركين، فلما نزل الجيش الوثني أرض بدر أرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمر بن الخطاب إلى قريش، وقد كان سفيرهم في الجاهلية، فنصحهم عمر بالرجوع إلى ديارهم حقنا للدماء.. فتلقفها حكيم بن حزام أحد عقلاء المشركين، فقال: قد عرض نصفا، فاقبلوه، والله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من النصف. فقال أبو جهل: والله لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم [3].

فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصاً على حقن الدماء، في حين كان أبو جهل حريصاً على سفك الدماء، وانظر إلى هذه القيمة الحضارية التي يسجلها نبي الرحمة في هذه المعركة [4].

أما قريش فقضت ليلتها هذه في معسكرها بالعدوة القصوى، ولما أصبحت أقبلت في كتائبها، ونزلت من الكثيب إلى وادي بدر، فلما رآها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصوب من الكثيب الذي جاءوا منه قال: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني به اللهم أحنهم [5] الغداة**» [6].

---

(١) مسلم - الصحيح ٣/ ١٥١٠ (حديث ١٩٠١).

(٢) المنذري - مختصر صحيح مسلم ٢/ ٧٠ (حديث ١١٥٧).

(٣) الواقدي، ١ / ٦٢، والسيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، ٢/ ٣٩٩، وسبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، ٤/ ٣٣.

(٤) محمد مسعد ياقوت، الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية، ص٦٠.

(٥) أحنهم: أي أهلكهم.

(٦) البداية والنهاية، ٣/ ٢٦٧.

وقد كان خفاف بن أيماء بن رحضة الغفاري - أو أبوه أيماء بن رحضة الغفاري - بعث إلى قريش، حين مروا به، ابنا له بجزائر أهداها لهم؛ وقال لهم: إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا. قال: فأرسلوا إليه مع ابنه: أن وصلتك رحم! قد قضيت الذي عليك. فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم. ولئن كنا إنما نقاتل الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بالله من طاقة [1].

وبعد أن استقر رأي قريش علي خوض غمار المعركة بعثت عُمَيْر بن وهب الجُمَحِي للتعرف على مدى قوة جيش المدينة فقالوا: احزر لنا أصحاب محمد، فاستجال حول العسكر على فرس له ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة وخمسون يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا، ولكن أنظروني حتى أنظر في الوادي حتى أرى هل لهم مدد أو كمين؟ فضرب في الوادي حتى أمعن، ثم رجع فقال: ما رأيت شيئا، ولكن يا معشر قريش، قد رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح [2] تحمل الموت الناقع [3]، قد رأيت أقواما ما وراءهم مرجع، وما عصمتهم إلا سيوفهم، ولا والله ما أرى أن يقتل رجل حتى يقتل مثله، فإذا قتلوا مثل أعدادهم فما خير في العيش بعده، فروا رأيكم يا معشر قريش [4].

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فلقي عتبة بن ربيعة قال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، فهل لك إلى أن لا تزال منها بخير إلى آخر الدهر؟ فقال: وما ذاك؟ قال ترجع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي [5]، فقال عتبة: قد فعلت فأت ابن الحنظلية [6]، يعني أبا جهل بن هشام، ثم قام عتبة خطيبا فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، وقد نجى الله عيركم وأموالكم فلا حاجة لكم في أن تسيروا

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٢٦٧.

(٢) الناضح: الجمل أو الثور أو الحمار الذي يستقى عليه الماء.

(٣) الموت الناقع: الدائم البالغ.

(٤) من دلائل البيهقي ٣ / ٦٥ والخبر في سيرة ابن هشام ٢ / ٢٧٤ وكامل ابن الاثير ٢ / ١٢٣.

(٥) وكان عمرو بن الحضرمي قتل في سرية عبد الله بن جحش، وأسر عثمان والحكم واستولي المسلمون علي القافلة ثم قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة.

(٦) قال ابن هشام: الحنظلية أم أبي جهل، وهي أسماء بنت مخربة أحد بني نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم.

في غير صنيعة ، وإنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم فاجعلوا بي جبنها وارجعوا ، والله لئن أصبتم محمدا وأصحابه لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلا من بني عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه لما لا تريدون .

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل فقلت: يا أبا الحكم ، إن عتبة بن ربيعة أرسلني إليك بكذا وكذا للذي قال ، فقال أبو جهل: انتفخ والله سحره [1] حين رأى محمدا وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه وقد تخوفكم عليه . ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فأنشد خفرتك ومقتل أخيك ، فقام عامر فاكتشف ثم صرخ: واعمراه ، واعمراه ، فحميت الحرب وحقب أمر الناس واستوسق على ما هم فيه من الشر وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة بن ربيعة ، فلما بلغ ذلك عتبة من قول أبي جهل ، انتفخ سحره قال: سيعلم مصفر استه أينا الجبان المفسد لقومه ، أنا أم هو ، ثم التمس عتبة بن ربيعة بيضة ليدخلها رأسه ، فما وجدت في الجيش بيضة تسعه من عظم هامته ، فاعتجر حين رأى ذلك ببرد له على رأسه ، وأقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم حكيم بن حزام ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دعوهم**» ، فما شرب منهم رجل يومئذ إلا قتل ، إلا حكيم بن حزام فإنه لم يقتل ، وأسلم بعد ذلك فحسن إسلامه ، فكان إذا اجتهد يمينه قال: والذي نجاني يوم بدر [2] .

وهكذا تغلب الطيش على الحكمة ، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى .

ولما تراءى الجمعان وتقابل الجيشان ودنا بعضهم من بعض ، أخذ أبو جهل يدعو على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة**» فكان ذلك استفتاحه الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿**إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنفال: ١٩] [3] .

---

(١) سحره: رئته ، يقال ذلك للجبان .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٧٥ والبيهقي في الدلائل ٣ / ٦٥ وابن الاثير ٢ / ١٢٤ .

(٣) الطبري - التفسير ١٣/ ٤٥٤ ، والحاكم - المستدرك ٢/ ٣٢٨ .

ثم إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ حفنة من الحصباء [1] فاستقبل بها قريشا ثم قال شاهت [2] الوجوه ثم نفحهم بها، وجعل الله تلك الحصباء عظيما شأنها لم تترك من المشركين رجلا إلا ملأت عينيه، فما أصاب رجلا منهم إلا قتل يوم بدر، فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧].

ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميته فالرمي يراد به الحذف والإيصال، فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال [3].

ونلحظ أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ بالأسباب المادية والمعنوية وتوكل على الله فكان النصر والتأييد من الله تعالى، فقد اجتمع في بدر الأخذ بالأسباب بالقدر الممكن مع التوفيق الرباني في تهيئة جميع أسباب النصر متعاونة متكافئة مع التأييدات الربانية الخارقة والغيبية، ففي عالم الأسباب تشكّل دراسة الأرض والطقس ووجود القيادة والثقة بها والروح المعنوية لبناتٍ أساسية في صحة القرار العسكري، ولقد كانت الأرض لصالح المسلمين وكان الطقس مناسباً للمعركة، والقيادة الرفيعة موجودة والثقة بها كبيرة، والروح المعنوية مرتفعة، وبعض هذه المعاني كان من الله بشكل مباشر وتوفيقه وبعضها كان من فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذاً بالأسباب المطلوبة فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله وزيد على ذلك التأييدات الغيبية والخارقة فكان ماكان، وذلك نموذج على مايعطاه المسلمون بفضل الله إذا ما صلحت النيات عند الجند والقادة ووجدت الاستقامة على أمر الله، وأخذ المسلمون بالأسباب [4].

اندلاع شرارة القتال:

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومى - وكان رجلًا شرسًا سيئ الخلق - خرج قائلًا: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه. فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلما التقيا ضربه حمزة

(١) الحصباء: الحجارة الصغيرة.
(٢) شاهت: قبحت.
(٣) زاد المعاد، ٣/ ١٨٣.
(٤) الأساس في السنّة وفقها السيرة النبوية، ١/ ٤٧٤.

فأطَنَّ [1] قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن تبر يمينه، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض [2].

فحمى عند ذلك عتبة بن ربيعة وأراد أن يظهر شجاعته، فبرز بين أخيه شيبة وابنه الوليد، فلما توسطوا بين الصفين طالبين المبارزة، فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة وهم عوف ومعاذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط [3] من الأنصار. قالوا: أكِفَّاء كرام، ما لنا بكم حاجة، وإنما نريد بني عمنا، ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي**»، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ فأخبروهم، فقالوا: أنتم أكفاء كرام، فبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد. فأما حمزة وعلي فلم يمهلا قرنيهما أن قتلاهما، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم كَرَّ على وحمزة على عتبة فقتلاه، واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله، فلم يزل ضَمِنًا حتى مات بالصفراء، بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر، حينما كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة. وكان علي يقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ - يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ - وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ - كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ - إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ - وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ**﴾ [الحج: ١٩ - ٢٤] [4].

وكانت هذه بداية سيئة للمشركين؛ إذ فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة، فاستشاطوا غضبًا، وكروا على المسلمين كرة رجل واحد.

---

(١) أي: قطع.

(٢) في الواقدي: زحف الأسود حتى وقع في الحوض فهدمه برجله الصحيحة، وشرب منه. وقال موسى بن عقبة في روايته: فأقبل يحبو حتى وقع في جوف الحوض فهدم منه واتبعه حمزة حتى قتله. انظر: دلائل البيهقي ٣ / ١١٣، مغازي الواقدي، ١ / ٦٨.

(٣) الرهط: الجماعة من الرجال دون العشرة.

(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري - الأحاديث: ٣٩٦٦ - ٣٩٦٩).

وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم واستغاثوه وأخلصوا له وتضرعوا إليه تلقوا هجمات المشركين المتتالية، وهم مرابطون في مواقعهم، واقفون موقف الدفاع، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة، وهم يقولون: أحَد أحَد[1].

وكانت توجيهات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم. ولا تسلّوا السّيوف حتّى يغشوكم**»[2].

وحرضهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على القتال قائلا: والذي نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة[3].

وقد ارتفعت معنويات الصحابة وزاد نشاطهم واندفاعهم في القتال بعد سماعهم قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ وعلمهم وإحساسهم بإمداد الملائكة وبتقليلهم في أعين المسلمين وتقليل المسلمين بأعين المشركين.

فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد رأى في منامه ليلة اليوم الذي التقى فيه الجيشان، رأى المشركين عددهم قليل، وقد قص رؤياه على أصحابه فاستبشروا خيرًا قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

والمعنى أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رآهم - أي رأى المشركين - في منامه قليلا، فقص ذلك على أصحابه فكان ذلك سببًا لثباتهم، قال مجاهد: ولو رآهم في منامه كثيرًا لفشلوا وجبنوا عن قتالهم، ولتنازعوا في الأمر: هل يلاقونهم أم لا، والمضارع في الآية بمعنى الماضي؛ لأن نزول الآية كان بعد الإراءة في المنام (وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ) أي عصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقص رؤياه على أصحابه فكان في ذلك تثبيت لهم وتشجيعهم وجرأتهم على عدوهم. وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين، رأى كل منهم عدد الآخر قليلا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ وإنما قللهم

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٤/ ٤٨٠، ٧/ ٢٩٣ - ٩٦، ٣٢١)، مسلم - الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٥٩ - ٦٠)، وابن كثير - البدآية ٣/ ٢٨٦، والهيثمي - مجمع الزوائد ٦/ ٧٩، وانظر: عن الشعار ابن هشام - السيرة/ ٦٣٤.

(٢) أبو داود - السنن ٤/ ٤٩.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٢٣٩.

في أعين المسلمين تصديقًا لرؤيا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزدادوا يقينا ويجدُّوا في قتالهم ويثبتوا، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلا منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفا. وقوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل من المشركين: إنما هم أكلة جزور.. ووجه الحكمة واللطف بالمسلمين في هذا التقليل، هو أن إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلا ثبتهم ونشطهم وجرَّأهم على قتال المشركين، ونزع الخوف من قلوب المسلمين من أعدائهم. ووجه الحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلا أقدموا على قتالهم غير خائفين ولا مبالين بهم، ولا آخذين الحذر منهم، فلا يقاتلون بجد واستعداد ويقظة وتحرز، ثم إذا ما التحموا بالقتال فعلا تفجؤهم الكثرة فيبهتون ويهابون، وتكسر شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم وانتصار المسلمين عليهم[1].

الملائكة في ساحة المعركة:

لقد ثبت الصحابة رضوان الله عليهم أمام ضربات المشركين، وأظهروا ضروبا من الشجاعة، جعلت همة وحماسة القريشيين تفتر أمامها، وضعفت هجماتهم، فاستغل الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك الوهن الذي أصاب كفار قريش وباغتهم بالهجوم عليهم، فأقبل المسلمون يضعضعون صفوف الكفار قتلاً وأسراً، وارتفعت معنوياتهم بعد أن رأوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخرج من العريش - بعد مناجاته ربه عز وجل - يثب في الدرع، وقد تقدمهم فلم يكن أحد أقرب من المشركين منه، وهو يقول في جزم وصراحة: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥ - ٤٦][2] فقاتل المسلمون أشد القتال ومنح الله المسلمين أكتاف المشركين. فتناولوهم قتلا وأسراً ونصرتهم الملائكة[3].

---

(١) تفسير الزمخشري (٢/ ٢٢٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٥).

(٢) وهذه الآية وإن كانت مكية فقد جاء تصديقها يوم بدر كما روي عن عكرمة قال: لما نزلت: (سيهزم الجمع ويولون الدبر) قال عمر: أي جمع يهزم وأي جمع يغلب؟ قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يثب في الدرع وهو يقول: "سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر" فعرفت تأويلها يومئذ. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٣/ ٣٣٧.

(٣) في كتب التفسير - تفسير سورة القمر باب قوله: (سيهزم الجمع) ح ٤٨٧٥ فتح الباري ٨ / ٦١٩ وأخرجه في كتاب الجهاد. باب: ما قيل في درع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولقد ثبت من نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، ومرويات عدد من الصحابة البدريين أن الله سبحانه وتعالى قد أمدّ الفئة المؤمنة بالنصر، وبأنه أمدهم بالملائكة الذين ثبّتوا الذين آمنوا فقاتلوا معهم، وأنه تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣ - ١٢٦].

وأورد البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل وغيرهم عددا من الأحاديث الصحيحة التي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدر، وقيامهم بضرب المشركين وقتلهم [(١)].

روي ابن سعد عن عكرمة قال: كان يومئذ يَنْدُر رأس الرجل لا يدرى من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدرى من ضربها [(٢)].

وقال علي: قال لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر، ولأبي بكر: «**مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال، أو**

وفي كتاب المغازي باب: إذ تستغيثون ربكم.

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري ١/ ٣١١ - ٣١٢، ٧/ ٣١٢)، مسلم - الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٨٥ - ٨٦)، أحمد - المسند ٢/ ١٩٤ بإسناد صحيح، الهيثمي - مجمع الزوائد ٦/ ٧٥ - ٧٦، ابن كثير - البدآية ٣/ ٢٨٤. وأشار أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة إلى أن بعض الكتاب المسلمين يتحاشون الإشارة إلى مشاركة الملائكة ببدر وهو يرى بأن «هذا من مظاهر الهزيمة أمام الفكر المادّي الذي لا يؤمن إلّا بالمحسوسات» في حين أن الإيمان برسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقتضي الإيمان بالملائكة، ٢/ ٣٦٦. انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ١ / ٢٩١.

(٢) محمد بن عبد الله بن يحيى ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١/ ٣٣٨، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، ٤/ ٤٢.

يكون في القتال» [١] . وهذا يشبه الحديث أن أبا بكر كان في الميمنة ولما تنزل الملائكة يوم بدر تنزيلا كان جبريل على أحد المجنبتين في خمسمائة من الملائكة ، فكان في الميمنة من ناحية أبي بكر الصديق ، وكان ميكائيل على المجنبة الأخرى في خمسمائة من الملائكة فوقفوا في المسيرة وكان علي بن أبي طالب فيها [٢]

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم [٣] . فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو خطم أنفه [٤] ، وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك ، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله فقال: «**صدقت**» ذلك مدد من السماء الثالثة [٥] ، ومن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضاً قال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**» [٦] ، ومن حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبدالمطلب أسيراً ، فقال العباس: يارسول الله إن هذا والله ما أسرني ، لقد أسرني رجل أجلح [٧] من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق [٨] ما أراه في القوم ، فقال الأنصاري: أنا أسرته يارسول الله فقال: «**أسكت فقد أيدك الله بملك كريم**» ، ومن حديث أبي داود المازني قال: (إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قتله غيري) [٩] .

إن إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعي ثابت لاشك فيه ، وإن الحكمة من هذا الإمداد تحصيل مايكون سبباً لانتصار المسلمين ، وهذا ماحصل

---

(١) مسند أحمد ٢ / ٢٥٥ ونقله السيوطي في الخصائص الكبرى ١ / ٢٠١ والصالحي في السيرة الشامية وعزاه للامام أحمد والبزار والحاكم: في ٤ / ٦٣ .

(٢) رواه البيهقي في الدلائل ٣ / ٥٥ وأبو يعلى والحاكم عن علي رضي الله عنه .
وذكره الهيثمي في الزوائد ٦ / ٧٧ وقال: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات ، ونقله الصالحي في السيرة الشامية ٤ / ٦١ .

(٣) حيزوم: اسم الفرس الذي يركبه الملك .

(٤) خطم: الخطم الأثر على الأنف .

(٥) مسلم في الجهاد ، باب الإمداد بالملائكة رقم (١٧٦٣) .

(٦) البخاري في المغازي ، باب فضل من شهد بدراً رقم (٣٩٩٥) .

(٧) الأجلح: الذي انحسر شعره عن جانبي رأسه .

(٨) الأبلق: ارتضع التحجيل إلى فخذيه .

(٩) صحيح السيرة النبوية ، ص٢٤٧ .

بنزول الملائكة ، فقد قاموا بكل مايمكن أن يكون سبباً لانتصار المسلمين ، من بشارتهم بالنصر ، ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم من بواعث الأمل في نصرهم ، والنشاط في قتالهم ، وبما أظهروه لهم من أنهم معاونون من الله تعالى ، وأيضاً بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعلي في القتال ولاشك أن هذا الاشتراك الفعلي في القتال قوّى قلوبهم وثبتهم في القتال ، وهذا مادلت عليه الآيات ، وصرحت به الأحاديث النبوية [1] .

إن الإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصبة المجاهدة ، ذلك الإمداد الذي تحقق به مايستلزم الغلبة على العدو ، ولكن بقيت الغلبة موقفة على ماقدمه أولئك المؤمنون في قتال ومباشرة لأعمال القتال ، وتعرضهم للقتل ، وصمودهم وثباتهم في الحرب ، واستدامة توكلهم على الله ، واعتمادهم عليه ، وثقتهم به ، وهذه معان جعلها الله حسب سننه في الحياة أسباباً للغلبة والنصر ، مع الأسباب الأخرى المادية ، مثل العُدة والعدد والاستعداد للحرب وتعلم فنونه . . الخ ولهذا فإن الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل وقتال المبطلين ، وأن يهيؤوا الأسباب المادية والإيمانية للغلبة والانتصار ، وبأيديهم إن شاء الله تعالى ينال المبطلون مايستحقونه من العقاب قال تعالى: ﴿ **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥] .

إن نزول الملائكة عليهم السلام من السماوات العلى إلى الأرض لنصر المؤمنين حدث عظيم ، إنه قوة عظمى ، وثبات راسخ للمؤمنين حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان ، وأنهم إذا حققوا أسباب النصر واجتنبوا موانعه فإنهم أهل لمدد السماء ، وهذا الشعور يعطيهم جرأة في مقابلة الأعداء وإن كان ذلك على سبيل المغامرة ، لبُعد التكافؤ المادي بين جيش الكفار الكبير عدداً ، القوي إعداداً ، وجيش المؤمنين القليل عدداً الضعيف إعداداً .

وهو في نفس الوقت عامل قوي في تحطيم معنوية الكفار وزعزعة يقينهم ، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تكرار نزول الملائكة الذي شاهدهم بعضهم عياناً إنهم مهما قدروا قوة المسلمين وعددهم فإنه سيبقى في وجدانهم رعب مزلزل من احتمال مشاركة قوى غير منظورة ، لايعلمون عددها ولايقدِّرون مدى قوتها وقد رافق هذا الشعور المؤمنين في كل حروبهم التي خاضها الصحابة

(١) المستفاد من قصص القرآن ، ٢/ ١٣١ - ١٣٢ .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في العهد النبوي وفي عهد الخلفاء الراشدين، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك، فكان عاملاً قوياً في انتصاراتهم المتكررة الحاسمة مع أعدائهم [1].

إبليس ينسحب عن ميدان القتال:

وكان إبليس في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجال من بني مدلج، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم [2]، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم، وهذا ما حكاه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨] وأقبل جبريل إلى إبليس فلم رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع إبليس يده. ثم ولى مدبرا وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، ألست تزعم أنك جار لنا، فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب، وهذا ما حكاه القرآن في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وذلك حين رأى الملائكة، فتشبث به الحارث بن هشام - وأسلم بعد ذلك - وهو يرى أنه سراقة لما سمع كلامه، فضرب الشيطان في صدر الحارث فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يلوي، حتى سقط في البحر، ورفع يديه وقال: يا رب، موعدك الذي وعدتني، اللهم إني أسألك نظرتك إياي، وخاف أن يخلص إليه القتل.

ويروى أنهم رأوا سراقة بمكة بعد ذلك فقالوا له: يا سراقة أخرمت الصف، وأوقعت فينا الهزيمة، فقال: والله ما علمت بشئ من أمركم حتى كانت هزيمتكم، وما شهدت وما علمت، فما صدقوه حتى أسلموا وسمعوا ما أنزل الله تعالى فيه.

فعلموا أنه كان إبليس تمثل لهم [3].

ففى ذلك يقول حسان:

---

(١) التاريخ الإسلامي، الحميدي، ٤/ ١٤٥.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ٢ / ٣١٧ - ٣١٨، ونقله البيهقي عن موسى بن عقبة كتاب المغازي يزيد كلمة وينقص كلمة والمعنى واحد، دلائل النبوة ٣ / ١٤٧ - ١٤٩.

(٣) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، ٤/ ٤٣.

سـرنا وسـاروا إلى بـدر لحيـنهم ::: لـو يعلمـون يقـين العلـم ما ساروا
ثم التقيـنا فولـوا عـن سـراتهم ::: إن الخبـيث لمـن والاه غـرار
وقـال إني لكـم جـار فـأوردهم ::: شـر المـوارد فـيه الخـزي والعـار
دلاهـم بغـرور ثم أسـلمهم ::: مـن مـنجدين ومنهم فرقة غاروا [1]

وهـذا كقـوله تعـالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١].

فإبلـيس لعـنه الله لمـا عاين الملائكة يومئذ تنزل للنصر فر ذاهبا فكان أول من هـزم يومئذ بعد أن كان هو المشجع لهم المجير لهم كما غرهم ووعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا.

وبعـد انـسحاب إبلـيس مـن المعـركة بدأت أمارات الفشل والاضطراب في صفوف المشركين، وجعلت تتهدم أمام حملات المسلمين العنيفة، واقتربت المعركة مـن نهايتها، وقد حاول أبو جهل إعادة ترتيب صفوف المشركين، وإرجاع من فر مـنهم، وتثبيت من إضطرب منهم فنادي عليهم قائلا: يا معشر الناس لا يهمنكم خـذلان سـراقة، فإنـه كـان علـى ميعاد من محمد، ولا يهمنكم قتل عتبة وشيبة، فإنهم قد عجلوا.

فـواللات والعـزى لا نـرجع حتـى نقرن محمدا وأصحابه بالحبال، ولا ألفين رجلا منكم قتل رجلا منهم، ولكن خذوهم أخذا حتى نعرفهم سوء صنيعهم [2].

ولكـن ذهبت هذه المناشدات أدراج الرياح وتصدعت صفوف المشركين أمام تـيارات هجـوم المـسلمين، وأخذت جموع المشركين في الفرار والانسحاب المبدد، وركـب المـسلمون ظهـورهم يأسرون ويقتلون، حتى تمت عليهم الهزيمة، وانتصر المـسلمون علـيهم، وقـتل من المشركين سبعين رجلاً، وأسر منهم سبعون، وكان أكثـرهم مـن قـادة قـريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً،

(١) محمـد بن عبد الله بن يحيى بن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ١/ ٣٢٥، أبـو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، لاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسـول الله والـثلاثة الخلفـاء، تحقيق: د. محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٧هـ، ٢/ ٤٣.

(٢) محمـد بـن يوسـف الـصالحي الـشامي، سـبل الهـدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، ٤/ ٤٣.

منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار [1].

مصرع أبي جهل:

قال عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بينما أنا واقف في الصف يوم بدر، نظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضلع منهما [2]، فغمزني [3] أحدهما فقال: ياعم هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم وما حاجتك إليه ياابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لايفارق سوادي سواده، حتى يموت الأعجل منا. قال: فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال مثالها.

قال: فلم أنشب [4] أن نظرت إلى أبي جهل يزول في الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبراه، فقال: «**أيكما قتله؟**» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: «**كلاكما قتله**»، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء [5]، وفي حديث أنس قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر: «**من ينظر ماصنع أبو جهل؟**» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضرباه (أبناء عفراء حتى برد [6]، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قال: (قتلتموه) [7]، وفي حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (أدركت أبا جهل يوم بدر صريعاً، فقلت: أي عدو الله قد أخزاك الله؟

قال: وبما أخزاني؟من رجل قتلتموه، ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولايحتك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده فوقع السيف من يده

---

(١) انظر: الواقدي: ص ١٤٣، وابن هشام ٢/ ٣٦٥، وابن سيد الناس، ص ٢٨٥، وتاريخ الخميس ١/ ٤٠٣، وانظر: البخاري، كتاب المغازي، ١٠/ ح ٣٩٨٦ وأعاده في التفسير - سورة آل عمران - وأخرجه أبو داود في الجهاد في باب أي وقت يستحب اللقاء ورواه البيهقي في الدلائل ٣ / ١٢٤.

(٢) أضلع: أقوى وأعظم وأشد.

(٣) غمزني: قرصني.

(٤) أنشب: ألبث.

(٥) البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد بدراً رقم ٣٩٨٨.

(٦) برد: قارب على الموت وكان في النزع الأخير.

(٧) البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل رقم ٣٩٦٣.

فأخذته ، ثم كشفت المغفر عن رأسه ، فضربت عنقه ، ثم أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرته ، فقال: «**الله الذي لا إله إلا هو**» . قلت: الله الذي لا إله إلا هو .

قال: فانطلق فاستثبت فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر ، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته .

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (انطلق) فانطلقت معه فأريته ، فلما وقف عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**هذا فرعون هذه الأمة**» [1] .

كان الدافع من حرص الأنصاريين الشابين على قتل أبي جهل ماسمعاه من أنه كان يسب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهكذا تبلغ محبة شباب الأنصار لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بذل النفس في سبيل الانتقام ممن تعرض له بالأذى .

لقد كان أبو جهل مستكبراً جباراً حتى وهو صريع وفي آخر لحظات حياته ، - وهذا شأن الطغاة والفراعنة في كل زمان ومكان - فقد جاء في رواية لابن إسحاق أنه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتزَّ رأسه (لقد ارتقيت مرتقىً صعباً يارويعي الغنم) [2] .

لقد أراد الله عز وجل أن يذل فرعون هذه الأمة فقتله لم يأتي علي يد فارس من فرسان الإسلام ولا شجاعا من شجعانه ، إنما علي يد شابين صغيرين من شباب الإسلام ، وإمعانا في الامتهان لأبي جهل جاء الخلاص من الدنيا علي يد من كان يمعن في تعذيبه ، ومن أحد المستضعفين الذين طالما أذاقهم هذا الطاغية ويلات التعذيب .

فالله تعالى لم يعجِّل لهذا الخبيث أبي جهل بضربات الأبطال من أشبال الأنصار ، ولكنه أبقاه مصروعاً في حالة من الإدراك والوعي بعد أن أصابته ضربات أشفَتْ به على الهلاك الأبدي ليريه بعين بصره مابلغه من المهانة والذل والخذلان على يد من كان يستضعفه ويؤذيه ، ويضطهده بمكة من رجال الرعيل الأول ، السابقين إلى مظلَّة الإيمان ، وطهر العقيدة ، والتعبد لله بشرائعه ، التي أنزلها رحمة للعالمين عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فيعلو على صدره ، ويدوسه بقدميه ، ويقبض على لحيته تحقيراً له ، ويقرِّعه تقريعاً يبلغ من نفسه مجمع غروره واستكباره في الأرض ، ويستل منه سيفه إمعاناً في البطش به فيقتله به ، ويمعن في

(١) صحيح السيرة النبوية ، ص٢٤٢ .
(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٢/ ٢٤٧ .

إغاظته بإخباره أن النصر عقد بناصية جند الله وكتيبة الإسلام، وأن شنار الهزيمة النكراء وعارها، وخزيها وخذلانها قد رزئت به كتائب الغرور الأجوف في حشود النفير الذي قاده هذا الكفور الخبيث . . .) [1].

إن ما جرى لأبو جهل وأمثاله الطغاة من قتل مفزع درساً بليغاً للطغاة المتجبرين، وعبرة للمعتبرين، الذين يغترون بقوتهم وينخدعون بجاههم ومكانتهم، فيعتدون على الضعفاء، ويسلبونهم حقوقهم مآلهم إلى عاقبة سيئة ووخيمة في الآخرة، وقد يمكن الله للضعفاء منهم في الدنيا قبل الآخرة كما حدث لأمية بن خلف وأضرابه من طغاة الكفر، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

مصرع أمية بن خلف:

قال عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي [2] بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت (الرحمن) قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته (عبدعمرو).

فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزَه [3] حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف لانجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه ثم أبوا حتى يتبعونا - وكان رجلاً ثقيلاً - فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه، فتجللوه [4]، بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه وكان عبدالرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه [5] وفي رواية أخرى لعبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة، وكان اسمي عبد عمرو فتسميت حين أسلمت عبدالرحمن، ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: ياعبد عمرو أرغبت عن اسم سماك أبوك؟ قال: فأقول نعم.

قال: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا

---

(١) صادق عرجون، محمد رسول الله، ٣/ ٤٣١، ٤٣٢.

(٢) الصاغية: صاغية الرجل مايميل إليه، ويطلق على الأهل والمال.

(٣) أحرزه: أحميه.

(٤) تجللوه: طعنوه وأصابوه.

(٥) البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا وكل مسلم حربياً رقم (٢٣٠١).

تجبني باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لاأعرف!

قال: وكان إذا دعاني ياعبدعمرو لم أجبه ، قال: فقلت: يا أبا علي اجعل ماشئت ، قال: فأنت عبد الإله ، قال: قلت: نعم .

قال: فكنت إذا مررت به قال: ياعبد الإله فأجبته فاتخذ معه ، حتى إذا كان يوم بدر ، مررت به وهو واقف مع ابنه علي ، وهو آخذ بيده قال: ومعي أدراع لي قد استلبتها ، فأنا أحملها ، فلما رآني قال: ياعبدعمرو فلم أجبه ، فقال: ياعبدالإله ، فقلت: نعم ، قال: هل لك فيَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك؟ قال: قلت: نعم ها لله؟ قال: فطرحت الأدراع من يدي ، وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول: مارأيت كاليوم قط ، أما لكم حاجة في اللبن؟ ثم خرجت أمشي بهما ، قال ابن هشام: يريد باللبن أن من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن [1] .

لقد جري لهذا الطاغية مثل ماجري لأبي جهل ، حيث قتل علي أيدي أحد المستضعفين الذين أذيقوا الويلات والعذاب علي أيديهم ، فحينما رأى عدوه اللدود أمية بن خلف الذي كان يسومه أقسى وأعنف أنواع العذاب في مكة فلما رآه في يد عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسيراً صرخ بأعلى صوته (لانجوت إن نجا) .

ولقد حق لبلال بن رباح وأمثاله التشفي من هذا الطاغية ومن أمثاله في الحياة الدنيا نعمة يفرِّج الله بها عن المكروبين من المؤمنين الذين ذاقوا الذل والهوان على أيدي أولئك الفجرة الطغاة قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥] .

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى وقف على القتلى فقال: «**بئس العشيرة كنتم لنبيكم؛ كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس**» ، ثم أمر بهم فسحبوا إلى قليب من قُلُب بدر [2] .

وعن أبي طلحة: أن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا

(١) سيرة ابن هشام ، ٢/ ٢٤٣ .
(٢) زاد المعاد ، ٣/ ١٨٧ .

من صناديد قريش، فقذفوا في طَوِيّ [1] من أطواء [2] بدر خَبِيث مُخْبث.

وكان من هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا انتصر على قوم أقام بالعَرْصَة [3] ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى، واتبعه أصحابه. حتى قام على شفة الرَّكِيّ [4]، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، «**يا فلان ابن فلان، يا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟**» فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»، وفي رواية: «**ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون**» [5].

مكة تعلم بهزيمة جيشها:

لقد كانت هزيمة قريش فادحة، فقد فرو من ساحة بدر في صورة غير منظمة؛ وتبعثروا في الوديان والشعاب، واتجهوا صوب مكة مذعورين، لا يدرون كيف يدخلونها خجلاً، وكان خبر الهزيمة على أهل مكة كالصاعقة ولم يصدقوا ذلك في بداية الأمر، وكان أول من قدم بمصاب قريش الحَيْسُمَان بن عبد الله الخزاعى، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف، في رجال من الزعماء سماهم. فلما أخذ يعد أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحِجْر: والله إن يعقل هذا، فاسألوه عنى. قالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: ها هو ذا جالس في الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا [6].

وهذا أبو رافع مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقص علينا أثر خبر هزيمة قريش على أبي لهب - لعنه الله - حيث قال: كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلمتْ أم الفضل وأسلمتُ،

---

(١) الطوي: البئر التي بنيت جدرانها بالحجارة.

(٢) الأطواء: جمع طوي وهو بئر مبنية بالحجارة.

(٣) العرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء، والعرصتان كبرى وصغرى بعقيق المدينة.

(٤) على شفة الرّكيّ: أي على طرف البئر.

(٥) البخاري - الفتح، ٧ / ٣٩٧٦.

(٦) صحيح السيرة النبوية، ص٢٥٧.

وكان العباس يهاب قومه ويكره أن يخالفهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان أبو لهب عدو الله قد تخلف عن بدر فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة.. فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه ووجدْنا في أنفسنا قوة وعزة.

قال: كنت رجلاً ضعيفًا، وكنت أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها أنحت القداح وعندي أم الفضل (زوجة العباس بن عبد المطلب) جالسة وقد سرَّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال أبو لهب: هلم إليَّ فعندك لعمري الخبر، قال: جلس إليه والناس قيام عليه فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا، وايم الله مع ذلك ما لُمت الناس، لقينا رجالاً بيضًا على خيل بلق[1] بين السماء والأرض، والله ما تليق[2] شيئًا، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة، قال: وثاورته[3] فاحتملني وضرب بي الأرض ثم برك عليَّ يضربني وكنت رجلاً ضعيفًا، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فلعت[4] في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام موليًا ذليلاً، ثم مات بعد سبع ليال بالعدسة[5] فقتلته، فقتلته، فتركه بنوه، وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته، ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السبة في تركه حفروا له، ثم دفعوه بعود في حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه.

وعن ابن إسحاق: فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثا ما دفناه حتى أنتن.

وكانت قريش تتقي هذه العدسة كما تتقي الطاعون حتى قال لهم رجل من

---

(١) البلق: جمع أبلق وهو الذي فيه سواد وبياض.
(٢) ما تليق: ما تبقي.
(٣) ثاورته: ثبت له.
(٤) فلعت: شقت.
(٥) العدسة: قرحة قاتلة كالطاعون، وقد عدس الرجل: إذا أصابه ذلك.

قريش: ويحكما ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تدفنانه؟ فقالا إنا نخشى عدوة هذه القرحة، فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه فوالله ما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلا مكة فأسندوه إلى جدار ثم رضموا عليه بالحجارة[1].

هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة في ميدان بدر، وقد أثر ذلك فيهم أثرًا سيئًا جدًا، حتى منعوا النياحة على القتلى؛ لئلا يشمت بهم المسلمون.

قال ابن إسحاق: ناحت قريش على قتلاهم، ثم قالوا: لاتفعلوا يبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنسوا[2] بهم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء.

قال ابن كثير: وكان هذا من تمام ما عذب الله به أحياءهم في ذلك الوقت وهو تركهم النوح على قتلاهم، فإن البكاء على الميت مما يبل فؤاد الحزين[3].

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر، وكان يحب أن يبكي عليهم، وكان ضرير البصر، فسمع ليلًا صوت نائحة، فبعث غلامه، وقال: انظر هل أحل النَّحْبُ؟ هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلي أبكي على أبي حكيمة - ابنه - فإن جوفي قد احترق، فرجع الغلام وقال: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال:

أتبكي أن يضل لها بعير ::: ويمنعها من النوم السهود
ألا قد ساد بعدهم رجال ::: على بدر تقاصرت الجدود
وبكيهم ولا تسمى[6] جميعا ::: وحزوم ورهط أبي الوليد
وبكى إن بكيت على عقيل ::: وبكى حارثا أسد الأسود
على بدر سراة بني هصيص ::: وما لأبي حكيمة من نديد[4]
فلا تبكي على بكر ولكن ::: ولولا يوم بدر لم يسودوا[5]

لقد تركت غزوة بدر بنفوس أهل مكة المشركين كمدًا وأحزانًا وآلامًا بسبب

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢٥٨، دلائل البيهقي، ٣/ ١٤٦.
(٢) حتى تستأنوا: أي تؤخروا فداءهم حتى لا يتشدد في طلب الفداء.
(٣) البداية والنهاية، ٣/ ٣٧٧.
(٤) النديد: الشبيه والمثل.
(٥) البداية والنهاية، ٣/ ٣٧٧، نسب قريش، ص ٢١٨.
(٦) لا تسمي: لا تسأمي.

هزيمتهم ومن فُقدوا وأسروا، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بعلة ومات، وهذا أبو سفيان فقد ابنًا له وأُسر له ابنٌ آخر، وما من بيت من بيوت مكة إلا وفيه مناحة على قتل عزيز أو قريب، أو أسر أسير، فلا عجب أن كانوا صمموا في أنفسهم على الأخذ بالثأر، حتى إن بعضهم حرم على نفسه الاغتسال، مثل أبو سفيان بن حرب الذي نذر ألا يمس رأسه من ماء جنابة حتى يغزو المسلمين، ويأخذ بالثأر ممن أذلوهم، وقتلوا أشرافهم وصناديدهم، وانتظروا يترقبون الفرصة للقاء المسلمين والانتصاف منهم، فكان ذلك في أحد[1].

المدينة تبتهج لنصر جيش المسلمين:

لقد حقق المسلمون نصراً مدوياً علي مشركي مكة، وفي الوقت الذي تلقت فيه مكة نبأ هزيمة جيشها بالألم والحسرة، تلقت المدينة نبأ انتصار المسلمين بالتكبير والتهليل والفرحة، فبعد أن أتم الله الفتح للمسلمين أرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيرين إلى أهل المدينة؛ ليعجل لهم البشرى، أرسل عبد الله بن رواحة بشيرًا إلى أهل العالية، وأرسل زيد بن حارثة بشيرًا إلى أهل السافلة.

فجاءوا يوم الأحد شد الضحى[2]، وفارق عبد الله زيدا بالعقيق فجعل عبد الله ينادي على راحلته يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقتل المشركين وأسرهم قتل ابنا ربيعة، وابنا الحجاج وأبو جهل وقتل زمعة بن الأسود، وأمية بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة. قال عاصم بن عدي: فقمت إليه فنحوته فقلت: أحقا ما تقول يا ابن رواحة؟ قال إي والله وغدا يقدم رسول الله إن شاء الله ومعه الأسرى مقرنين. ثم اتبع دور الأنصار بالعالية - العالية بنو عمرو بن عوف وخطمة ووائل منازلهم بها - فبشرهم دارا دارا، والصبيان يشتدون معه ويقولون قتل أبو جهل الفاسق حتى انتهوا إلى بني أمية بن زيد، ولما قدم زيد بن حارثة على ناقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القصواء يبشر أهل المدينة، جاء المصلى وصاح على راحلته قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة. وابنا الحجاج وأبو جهل وأبو البختري. وزمعة بن الأسود، وأمية بن خلف. وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة. فجعل الناس لا يصدقون زيد بن حارثة، ويقولون ما جاء زيد إلا فلا[3] حتى غاظ المسلمين ذلك

(١) أبو شهبة، السيرة النبوية، ٢/ ١٧١.
(٢) شد الضحى: ارتفاعه.
(٣) الفل: القوم المنهزمون.

وخافوا . . . فقال رجل من المنافقين لأسامة بن زيد قتل صاحبكم ومن معه . وقال رجل من المنافقين لأبي لبابة بن عبد المنذر قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون منه أبدا ، وقد قتل علية أصحابه وقتل محمد ، هذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب وجاء فلا . قال أبو لبابة يكذب الله قولك وقالت يهود ما جاء زيد إلا فلا!

قال أسامة بن زيد فجئت حتى خلوت بأبي . فقلت: يا أبه . أحق ما تقول؟ قال إي والله حقا يا بني فقويت في نفسي ، فرجعت إلى ذلك المنافق فقلت: أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ليقدمنك رسول الله إذا قدم فليضربن عنقك فقال يا أبا محمد إنما هو شيء سمعت الناس يقولونه ، ، ولما تأكد لديهم فتح المسلمين ، فَعَمَّت البهجة والسرور ، واهتزت أرجاء المدينة تهليلًا وتكبيرًا[1] .

الخلاف حول الأنفال:

وبعد انتهاء المعركة بانتصار المسلمين أقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام ، وذلك لدفن من استشهد من الصحابة ، وجمع الغنائم وحفظها ، وإعطاء الجيش الظافر فرصة يستروح فيها ، ويضمد فيها جراح مجروحيه[2] .

وقبل رحيله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجيش من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم ، فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشهدت معه بدراً فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون فأكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه وأحدقت طائفة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حوّيناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لله وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] فقسمها رسول الله

(١) البداية والنهاية ، ٣/ ٣٧١ ، مغازي الواقدي ، ١/ ١١٥ .
(٢) انظر: موسوعة نظرة النعيم ، ١/ ٢٩١ ، صادق العرجون ، محمد رسول الله ، ٣/ ٤٥٣ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فواق بين المسلمين [1] وفي رواية قال عبادة بن الصامت عن الأنفال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله تبارك وتعالى من أيدينا فجعله إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقسمه رسول الله فينا عن سواء أي على سواء [2] .

كان الهتاف لهذه القلوب التي تنازعت على الأنفال ، هو الهتاف بتقوى الله (وسبحان خالق القلوب العليم بأسرار القلوب) إنه لايرد القلب البشري عن الشعور بتقوى الله ، وخوفه وتلمس رضاه في الدنيا والأخرى . إن قلباً لايتعلق بالله يخشى غضبه ، ويلتمس رضاه ، لايملك أن يتخلص من ثقلة الأعراض ، ولايملك أن يرف شاعراً بالانطلاق .

إن التقوى زمام هذه القلوب التي يمكن أن تقادمته طائفة ذلولة في يسر وفي هوادة وبهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب إلى إصلاح ذات بينهم: ﴿ فَاتَّقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ .

وبهذا الزمام يقودها إلى طاعة الله ورسوله: ﴿ وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ ﴾ وأول الطاعة هنا طاعته في حكمه الذي قضاه في الأنفال ، فقد خرجت من أن تكون لأحد من الغزاة على الإطلاق ، وارتدت ملكيتها ابتداءً لله والرسول ، فانتهى حق التصرف فيها إلى الله ورسوله ، فما على الذين آمنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله وقسم رسول الله ، طيبة قلوبهم ، راضية نفوسهم ، وإلا أن يصلحوا علائقهم ومشاعرهم ، ويضعوا قلوبهم بعضهم لبعضهم [3] .

هذه التربية الربانية تعيد زمام هذه النفوس مستسلمة لله عز وجل ولا تستعبدها نشوة الظفر ، ولا استعلاء النصر ، فتنسى ضعفها البشري وقصورها البشري ، وتفكر بالاستعلاء والاستكبار على الآخرين .

وهذا العرض الرباني يؤكد حقيقة أكبر من النصر على المشركين يؤكد أن صلاح ذات البين ، والانتصار الحقيقي على مسارب النفوس ومشارب القلوب ، هو الأكبر في ميزان الله ، وهو الأعظم في ميزان الله ، ولاجدوى من نصر يعقبه صراع في الصف ، واختلاف في القلوب .

---

(١) مسند الامام أحمد ، ٥/ ٣٢٤ ، تفسير ابن كثير ، ٢/ ٢٨٣ ، الروض الأنف ، ٣/ ٩٠ .
(٢) مسند الامام أحمد ، ٥/ ٣٢٢ ، الروض الأنف ، ٣/ ٩٠ .
(٣) في ظلال القرآن الكريم ، ٣/ ١٤٧٣ ، ١٤٧٤ .

وتبين الآيات أن قضية التقوى والإيمان تدخل في كافة شؤون حياة المسلم وبها ينبع تحركه في الحياة وجهاده لإعلاء كلمة الله تعالى [1].

وتحرك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيشه نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين، واحتمل معه النفل الذي أصيب من المشركين، وجعل عليه عبد الله بن كعب، فلما خرج من مَضِيق الصفراء نزل على كَثِيب بين المضيق وبين النَّازِيَة، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء بعد أن أخذ منها الخمس كما قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بالله وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]. وهذا بعد ماطهرت قلوبهم من الأخلاط، وأخلصت إلى علام الغيوب في الطاعة، وتمثلت الآيات، فتحققت بمعنى العبودية الخالصة لله وهذا الحكم صريح في أن أربعة أخماس ماغنموه مقسوم بينهم، والخمس لله ورسوله، وهذا الخمس نفسه مردود فيهم أيضاً، وموزّع على الجهات المذكورة - كما ثبت بالسنة.

وقد أعطى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لورثة الشهداء وذويهم نصيبهم من الغنائم وبذلك كان للاسلام السبق في تكريم الشهداء ورعاية أبنائهم وأسرهم من قرابة أربعة عشر قرناً[2].

وقد أعطي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه الغنيمة من تخلف بأمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو لمهام أوكلها إليهم، أو لمرض أو عجز أو ظروف أسرية أو بعذر مقبول، فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة وبأجرهم فكانوا كمن حضرها، فقد أعفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الخروج يوم بدر لأن زوجته رقية كانت مريضة وبحاجة إلى من يرعى شؤونها روى البخاري في صحيحه أن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخبر عن سبب تغيب عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة بدر، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (... وما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانت مريضة فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه...**»[3].

كما أمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا أمامة بالبقاء عند أمه حيث كانت مريضة وهي

---

(١) الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية التربية الجهادية، ١/ ٥٢.

(٢) أبو شهبة، السيرة النبوية، ٢/ ١٧٦.

(٣) البخاري، كتاب الفضائل، باب مناقب عثمان (٤/ ٢٤٥) رقم (٣٦٩٩).

بحاجة إليه ، فعن أبي أمامة بن ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرهم بالخروج إلى بدر وأجمع الخروج معه فقال له خاله أبو بردة بن نيّار: أقِمْ على أمك ، يا ابن أختي فقال له أبو أمامة: بل أنت فأقم على أختك ، فذكر ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمر أبا أمامة بالمقام على أمه وخرج بأبي بردة ، فقدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد توفيت فصلى عليها [1] .

وأبو لبابة الذي استخلفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة ، وعاصم بن عدي الذي أرسله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مهمة لأهل العالية - في المدينة ، والحارث بن حاطب الذي أرسله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مهمة إلى بني عمرو بن عوف والحارث بن الصمة الذي وقع أثناء الطريق فكسر فرده - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وخوات بن جبير الذي أصابه في الطريق حجر في ساقه فرده من الصفراء [2] .

مقتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث:

وفي طريق عودة الجيش الإسلامي إلى المدينة أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتل اثنين من الأسرى وهما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط اللذين كانا من أئمة الكفر ، يؤذيان المسلمين بمكة ويشتدان في عداوتهما لله ولرسوله ، وكان في قتلهما درسا بليغا للطغاة ونهاية حاسمة للجبروت [3] .

ولقد أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتلهما ، عندما وصل إلى الصفراء [4] أثناء رجوعه للمدينة ، فلما سمع عقبة بن معيط بأمر قتله قال: ياويلي علام أقتل يامعشر قريش من بين من هاهنا؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعداوتك لله ولرسوله**» قال: يامحمد منْك أفضل ، فاجعلني كرجل من قومي ، إن قتلتهم قتلتني ، وإن منت عليهم منت عليَّ ، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم ، يامحمد ، من للصبية؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**النار قدّمه ياعاصم فاضرب**

---

(١) الطبراني في الكبير ورجاله ثقات . انظر: مجمع الزوائد ، ٣/ ٣١ .

(٢) معين السيرة ، ص٢١٥ .

(٣) الهيثمي - مجمع الزوائد ٦/ ٨٩ ، السهيلي - الروض الأنف ٣/ ٥٣ ، وانظر: الطبراني - الكبير ١١/ ٤٠٦ (حديث ١٢١٥٤) ، وأورد ابن هشام في السيرة ٢/ ٣٢٧ أن الآية (٢٧) من سورة الفرقان قد نزلت في عقبة بن أبي معيط هذا ، وأخرج ذلك الطبري في تفسيره (١٩/ ٦) عن طريق عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - ، وانظر: ابن كثير - التفسير ٦/ ١١٦ وقال: «وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو في غيره ، فإنها عامة في كل ظالم» .

(٤) الصَّفراء: واد كثير النخل والزرع والخير .

عنقه»، فقدمه عاصم فضرب عنقه [1].

لقد كان عقبة بن أبي معيط هذا من مردة قريش، وكان شديد الإيذاء لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد وروى البخاري بسنده إلى عروة بن الزبير، قال: سألت عبد الله بن عمر عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: رأيت عقبة بن أبي معيط، جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «أتقتلون رجلا أن يقول ربّي الله، وقد جاءكم بالبيّنات من ربّكم؟» [2].

وروى البخاري [3] ومسلم [4] من حديث ابن مسعود، قال: «بينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد. فانبعث أشقى القوم [5] فأخذه. فلما سجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر. لو كان لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت هي وجويرية، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم. فلما قضى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم...».

وأما النضر بن الحارث، فقد كان من شياطين قريش، وممن يؤذي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وينصب له العداوة وكان قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ويقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني.

وفي رواية عن ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قَيْنَةً، فكان لا يسمع بأحد

---

(١) مجمع الزوائد (٦/ ٨٩) قال فيه رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.
(٢) البخاري - الصحيح - الفتح: (١٤/ ١٧٩/ ح ٣٦٧٨) و (١٥/ ٩ - ١١/ ح ٣٨٥٦).
(٣) البخاري - الصحيح - الفتح (١٢/ ٦٦/ ح ٢٩٣٤).
(٤) مسلم - الصحيح (٣/ ١٤١٨ - ١٤١٩/ ح ١٧٩٤).
(٥) هو عقبة بن أبي معيط كما صرح به في الرواية الثانية عند مسلم - الصحيح (٣/ ١٤١٩/ ح ١٧٩٤).

يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته ، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه ، هذا خير مما يدعوك إليه محمد ، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [لقمان: ٦] (١) .

فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فضرب عنقه . فلما بلغ الخبر أخته قتيلة وقيل إنما هي بنته ورثته بأبيات ثم أسلمت . وفي أسد الغابة أن قتيلة بنت النضر . قال الواقدي هي التي قالت الأبيات التالية في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قتل أباها النضر بن الحارث يوم بدر وهي:

يا راكبا إن الأثيل مظنة ::: من صبح خامسة وأنت موفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة ::: ما أن تزال بها النجائب تخفق
ما كان ضرك لو منت وربما ::: جادت بواكفها وأخرى تخنق
أمحمد أولست صفو نجيبة ::: لله أرحام هناك تشقق
قسرا يقاد إلى المنية معتبا ::: رسف المقيد وهو عان موثق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ::: من قومها والفحل فحل معرق
مني إليك وعبرة مسفوحة ::: من الفتى وهو المغيظ المحنق
أبلغ بها ميتا بأن تحية ::: وأحقهم إن كان العتق يعتق

وحين سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكى وقال: «**لو بلغني هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه**» (٢) .

لقد كان هذان الرجلان من أكبر دعاة الحرب ضد الإسلام والمتربصين بالمسلمين الدوائر ، فبقاؤهما يعد مصدر خطر كبير على الإسلام ، ولاسيما في تلك الظروف الحاسمة التي تمر بها الدعوة الإسلامية ، فلو أطلق سراحهما لما تورّعا على سلوك أي طريق فيه كيد للإسلام وأهله ، فقتلهما في هذا الظرف ضرورة تقتضيها المصلحة العامة لدعوة الإسلام الفتية (٣)

وفود التهنئة:

وعندما رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة قادماً من بدر لقي بالروحاء رؤوس الناس يهنؤنه بما فتح الله عليه ، - وكانوا قد خرجوا للتهنئة والاستقبال

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١/ ٤٣٩ ، ٤٤٠ .
(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١/ ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، أي لقبل شفاعتها عنده فلا ينافي أن ما فعله حق .
(٣) محمد أحمد باشميل ، غزوة بدر الكبرى ، ص١٦٢ .

حين سمعوا بشارة الفتح من الرسولين - يهنؤونه بالفتح . وحينئذ قال لهم سَلَمَة بن سلامة: ما الذي تهنؤوننا به؟ فوالله إن لَقِينا إلا عجائز صُلْعًا كالْبُدْن المعُقَّلَة ، فنحرناها ، فتبسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثم قال: (يا بن أخي ، أولئك الملأ) قال ابن هشام: يعني الأشراف والرؤساء [1] .

وقال أسيد بن حضير: يا رسول الله ، الحمد لله الذي أظفرك ، وأقر عينك ، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوًا ، ولكن ظننت أنها عير ، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صدقت**» .

ثم دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة مظفرًا منصورًا قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة ، وحينئذ دخل عبد الله بن أبي وأصحابه في الإسلام ظاهرًا [2] .

وقدم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم ، فقسمهم على أصحابه ، وأوصى بهم خيرًا . فكان الصحابة يأكلون التمر ، ويقدمون لأسرائهم الخبز ، عملًا بوصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ولقيه عبد الله بن أنيس بتربان فقال: يا رسول الله ، الحمد لله على سلامتك وما ظفرك! كنت يا رسول الله ليالي خرجت مورودًا [3] ، فلم تفارقني حتى كان بالأمس فأقبلت إليك . فقال: «**آجرك الله!**» [4] .

ثم دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة مظفرًا منصورًا قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، فقد قويت شوكة المسلمين ، وأصبحوا مرهوبين في المدينة وماجاورها ، وأصبح من يريد أن يغزو المدينة أو ينال من المسلمين أن يفكر ويفكر قبل أن يقدم عل فعلته ، وتعززت مكانة الرسول في المدينة ، وارتفع نجم الإسلام فيها ، وأسلم بشر كثير من أهل المدينة ، ولم يعد المتشككون بالدعوة الجديدة والمشركون في المدينة يتجرؤون على إظهار كفرهم وعداوتهم للإسلام ، لذا ظهر النفاق والمكر والخداع ، فأعلنوا إسلامهم ظاهراً أمام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ، فدخلوا في عداد المسلمين ، وأبقوا على الكفر باطناً ، فظلوا في عداد

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ / ٢٩٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣ / ٣٧٢ .
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣ / ٣٠٥ .
(٣) الورود: هي الحمى ، إذا أخذت صاحبها ، ويقال: وردته الحمى فهو مورود .
(٤) مغازي ، الواقدي ، ١/ ١١٧ .

الكفار، فلاهم مسلمون مخلصون في إسلامهم، ولا هم كافرون ظاهرون بكفرهم وعداوتهم للمسلمين، قال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا﴾ [النساء: ١٤٣]. ومن أجل هذا الموقف المتذبذب، شنّع الله عليهم، وسمّع بهم في كثير من آياته، وتوعدهم بأشد أنواع العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وجاء جبير بن مطعم وهو كافر أي إلى المدينة يسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اسارى بدر فقال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو كان شيخك أو الشيخ أبوك حيا فأتانا فيهم لشفعناه**»، وفي رواية قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو كان مطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتن لأطلقتهم له**» (١).

لان المطعم كان أجار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قدم من الطائف وكان ممن سعى في نقض الصحيفة كما تقدم ذلك (٢).

قضية الأسارى:

ولما بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة استشار أصحابه في الأسارى، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعَشِيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله، فيكونوا لنا عضدًا.

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما ترى يابن الخطاب؟**» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليًا من عَقِيل بن أبي طالب فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين. وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

فهوى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قال عمر، وأخذ منهم الفداء: فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله

(١) أبو داود في الجهاد، باب المن على الأسير رقم ٢٦٨٩ وإسناده صحيح.
(٢) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، ٢/ ٤٥١.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، فقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة**» - شجرة قريبة.

وأنزل الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا والله يُرِيدُ الآخِرَةَ والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

والكتاب الذي سبق من الله قيل: هو قوله تعالى: ﴿**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء**﴾ [محمد: ٤]. ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى؛ ولذلك لم يعذبوا، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يثخنوا في الأرض، وقيل: بل الآية المذكورة نزلت فيما بعد، وإنما الكتاب الذي سبق من الله هو ما كان في علم الله من إحلال الغنائم لهذه الأمة، أو من المغفرة والرحمة لأهل بدر.

وحيث إن الأمر كان قد استقر على رأي الصديق فقد أخذ منهم الفداء، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألف درهم، وكان أهل مكة يكتبون، وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداء[1].

وفي رواية: عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ماتقولون في هؤلاء الأسرى؟**» فقال أبو بكر: يارسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يارسول الله أخرجوك وكذبوك قربهم فاضرب أعناقهم. وقال عبدالله بن رواحة: يارسول الله انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه ثم اضرم عليهم ناراً. فقال العباس: قطعت رحمك، فدخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يرد عليهم شيئاً. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبدالله بن رواحة، فخرج عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [المائدة:١١٨] وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال: ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**﴾ [نوح: ٢٦]».

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، ٣/ ١٣٨٣.

وإن مثلك كمثل موسى إذ قال: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس، آية: ٨٨].

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنتم عالة فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق**».

قال عبدالله بن مسعود: فقلت: يارسول الله، إلا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام قال فسكت. فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء في ذلك اليوم حتى قال: «**إلا سهيل بن بيضاء**» فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ . . .﴾ إلى آخر الآية [١].

وكان سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يري رأي عمر بن الخطاب في قتل المشركين وعدم قبول الفداء، فلما شرع الصحابة في أسر المشركين كره ذلك، ورأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكراهية في وجه سعد لما يضع الناس فقال له رسول الله: «**والله لكأنك ياسعد تكره مايصنع القوم**» قال أجل والله يارسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان بالقتل أحب إلى من استبقاء الرجل [٢].

وحين رجع الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلي المدينة بالأسارى فرقهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أصحابه وقال: «**استوصوا بهم خيرا**» [٣]..

وبهذه التوصية النبوية الرفيعة، تحقق في هذا الجيل الإسلامي الفضيل قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ [الإنسان: ٨].

وهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يحدثنا عما رأى. قال: كنت في الأسرى يوم بدر [٤]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**استوصوا بالأسارى خيرا**» [٥]. وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها. قال فأستحيي

(١) مسند الامام أحمد (١/ ٣٧٣)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٥).
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣ / ٣٠٥.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣ / ٣٠٧.
(٤) أيام كان على غير الإسلام، وكان في جيش المشركين.
(٥) ابن هشام، ١ / ٦٤٤.

فأردها على أحدهم فيردها علي ما يمسها [١] .

ويقول جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " لما كان يوم بدر أتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب ، فنظر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له قميصا فوجدوا قميص عبدالله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياه " [٢]

وهذا أبو العاص بن الربيع يحدثنا قال: كنت في رهط من الأنصار [٣] - جزاهم الله خيرا - ، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر ، والخبز معهم قليل ، والتمر زادهم ، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إلي ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد: وكانوا يحملوننا ويمشون [٤] .

وقد كان أبو العاص بن الربيع في الأسارى ، وختن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وزوج ابنته زينب ، أسره خراش بن الصمة ، فلما بعثت قريش فداء الأسرى بعثت زينب بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فداء أبي العاص وأخيه عمرو بن الربيع بقلادة لإمها خديجة ، فلما رآها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رق لها رقة شديدة ، وقال: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا**» ، فقالوا: نعم يا رسول الله ، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها [٥] .

كان هذا الخلق الكريم الذي غرسه المعلم الكبير محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصحابه وجنده وشعبه ، قد أثر في إسراع مجموعة من كبراء الأسرى وأشرافهم إلى الإسلام ، فأسلم أبو عزيز عقب معركة بدر ، بعيد وصول الأسرى إلى المدينة ، وتنفيذ وصية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأسلم معه السائب بن عبيد .

وعاد الأسرى إلى بلادهم وأهلبهم يتحدثون عن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومكارم أخلاقه ، وعن محبته وسماحته ، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى والإصلاح والخير [٦] .

---

(١) ابن هشام ، ١ / ٦٤٤ ، وابن سيد الناس ، عيون الأثر ١/ ٣٩٣ .
(٢) البخاري ، ٢٨٤٦ ، ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، ٦/ ١٤٤ .
(٣) قبل إسلامه ، أيام كان في جيش قريش ، وأسره الصحابه في معركة بدر .
(٤) الواقدي ، المغازي ١/ ١١٩ .
(٥) سبل الهدى والرشاد ، ٤ / ٧١ .
(٦) محمد مسعد ياقوت ، الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية ، ص ٤٣ .

الذين أطلقوا من غير فداء:

وكان المسلمون يقبلون من بعض الأسرى ما عندهم إذا تعذر دفع ما فرض عليهم من الفداء [١] . وأطلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسر بعض الأسرى الذين لم يقدروا على دفع شيء [٢] ومنهم:

١ - أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول:

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، قال: فلما رآها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رق لها رقة شديدة وقال: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا**» فقالوا: (نعم فاطلقوه وردوا عليها الذي لها) [٣] .

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ عليه، أو وعده، أن يخلي سبيل زينب إليه، وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: «**كونا ببطن يأجج** [٤] **حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها**» [٥] .

لقد أرسلت السيدة زينب بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزوجة أبي العاص بمال تفديه به، ومع المال قلادة كانت أمها السيدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أهدتها إليها فأدخلتها بها على زوجها لتتحلى بها، فلما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلادة ابنته رق لها رقة شديدة، إذ كانت هذه القلادة الكريمة مبعث ذكريات أبويّة عنده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكريات زوجية، وذكريات أسرية، وذكريات عاطفية، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أب، له من عواطف الأبوة أرفع منازلها في سجل المكارم الإنسانية، وأشرفها في فضائل الحياة، فتواثبت إلى خبايا نفسه الكريمة، المكرمة أسمى مشاعر الرحمة، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطف الحنان والحنين، فتوجه إلى أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متلطفاً يطلب إليهم في رجاء الأعز الأكرم رجاء يدفعهم إلى العطاء ولايسلبهم حقهم في الفداء، لو أنهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحق وهو في أيديهم

---

(١) أحمد - الفتح الرباني ١٤/ ١٠٠، ابن هشام - السيرة ١/ ٣٥٩.
(٢) ابن هشام - السيرة ١/ ٣٦٨ - ٩.
(٣) صحيح السيرة النبوية، ص٢٦١.
(٤) اسم مكان على ثمانية أميال من مكة.
(٥) أبو داود في الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال رقم ٢٦٩٢.

يملكون التصرف فيه ، فقال لهم: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي هو لها**» .

وهذا أسلوب من أبلغ وألطف مايسري في حنايا النفوس الكريمة ، فيطوّعها إلى الاستجابة الراغبة الراضية رضاء ينم عن الغبطة والبهجة [١] .

إن هذا الموقف ومايظهر منه من مظاهر الرحمة والعطف منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ابنته ، يحمل في طياته مقصداً آخر ، وهو أنه كان يتألف صهره للإسلام بذلك ، لما عرف عنه من العقل السديد والرأي الرشيد ، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يثنى عليه وهو على شركه بحسن المعاملة [٢] .

٢ - أبو عزة عمرو بن عبدالله الجمحي:

كان أبو عزة الجمحي قد برص فكانت قريش لا تؤاكله ولا تجالسه فقال للموت خير من هذا ، فأخذ حديدة ودخل بعض شعاب مكة فطعن بها في معده[٣] فسال منه أصفر فبرئ فقال

اللهم رب وائل ونهد ::: والتهمات والجبال الجرد
أبرأتني من وضح بجلد ::: أصبحت عبدا لك وابن عبد
ورب من يرعى بأرض نجد ::: من بعد ما طعنت في معدي[٤]

وكان يؤذي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين بشعره ، فلما أسره المسلمون في بدر ، قال: يارسول الله لقد عرفت مالي من مال وإني لذو حاجة وذو عيال فامنن علي ، فمنّ عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخذ عليه أن لايظاهر عليه أحداً فقال أبو عزة يمدح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك:

من مبلغ عني الرسول محمد ::: بأنك حق والمليك حميد
ولكن إذا ذكرتُ بدراً وأهله ::: لها درجات سهلة وصعود
فإنك من حاربته لمحاربٌ ::: شقي ومن سالمته لسعيد
وأنت امرؤ بُوئت فينا (مباءة) [٥] ::: تأوَّبُ مابي، حسرة وقعود

قال ابن كثير: ثم إن أبا عزة هذا نقض ماكان عاهد الرسول عليه ، ولعب

---

(١) عرجون ، محمد رسول الله ، ٣/ ٤٨٠ .
(٢) الحميدي ، التاريخ الإسلامي ، ٤/ ١٨٣ .
(٣) والمعد موضع عقب الراكب من الدابة .
(٤) الروض الأنف ، ٣/ ٢٩١ .
(٥) مباءة: مكانة رفيعة .

المشركون بعقله فرجع إليهم فلما كان يوم أحد أسر أيضاً، فسأل من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يمن عليه أيضاً فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا أدعك تمسح عارضيك وتقول خدعت محمداً مرتين**» ثم أمر به فضربت عنقه [1].

لما أسر أبا عزة الشاعر أول مرة استعطفه (أبو عزة) حتى أطلق سراحه على شرط ألا يقف بعد اليوم ضده، وتدور الأيام ويدخل أبو عزة المعركة ضد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيأسره مرة ثانية ويستعطفه مرة ثانية ولكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**» ويأمر بقتله. وهذا الذي سنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الحالة هو الذي أخذ به القانون الدولي في القرن العشرين حيث نص على أن الأسير الذي يطلق سراحه بشرط عدم الدخول في المعركة ضد آسريه مرة ثانية إذا أسر بعدها يقتل [2].

٣ - صَيْفي بن أبي رفاعة بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم:

وكان لا مال له، أسره رجل من المسلمين، فمكث عندهم فلما لم يأت أحد في فدائه أخذوا عليه ليبعثن إليهم بفدائه فخلوا سبيله فلم يف لهم بشيء فقال حسان بن ثابت في ذلك:

وما كان صيفي ليوفي ذمة ::: فقا ثعلب أعيا ببعض الموارد [3]

٤ - المطلب ابن حَنْطَب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم: وكان الذي أسره أبو أيوب الأنصاري، لم يكن له مالٌ فأطلق سراحه بعد حين [4].

- وكان من بين الأسرى سُهيل بن عمرو، وكان من خطباء قريش وفصحائها وطالما آذى المسلمين بلسانه، فلما قدم مكرز بن حفص بن الأخيف في فداء سهيل بن عمرو، فلما فاوض المسلمين وانتهى إلى رضائهم قالوا: هات الذي لنا قال لهم مكرز بن حفص: اجعلوا رجلي مكان رجله وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه فخلوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزاً عندهم، وجاء في الحديث أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعني أنزع ثنية سهيل بن عمرو ويدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن آخر؟ فقال رسول الله

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٣١٣.
(٢) سعيد حوى، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ١١/ ١٩.
(٣) الروض الأنف، ٣/ ١١١، مغازي الواقدي، ١/ ١٤٢.
(٤) مغازي الواقدي، ١/ ١٤٢.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً**» [1] ثم قال رسول الله لعمر: «**إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه**» [2].

ولقد حقق الله عز وجل خبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سهيل، فإنه لما هاج أهل مكة عند الذي بلغهم من وفاة رسول الله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قام خطيبًا، فقال: "أيها الناس، من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت" فسكن الناس [3].

ولما ماج أهل مكة عند وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وارتد من ارتد من العرب، قام سهيل بن عمرو خطيبًا. فقال: والله إني لأعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها إلى غروبها، فلا يغرنكم هذا من أنفسكم - يعني: أبا سفيان - فإنه ليعلم من هذا الأمر ما أعلم، ولكنه قد جثم على صدره حسد بني هاشم. وأتى في خطبته بمثل ما جاء به أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمدينة" [4].

وقد كان مخلصًا في عقيدته مطيعًا لأمر الحاكم، ذكر أنه حضر "الناس باب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيهم سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب، وأولئك الشيوخ من قريش، فخرج آذنه. فجعل يأذن لأهل بدر، لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يحبهم. وكان قد أوصى بهم.

فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قط! أنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس، لا يلتفت إلينا! فقال سهيل بن عمرو: أيها القوم إني والله قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضابًا، فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القوم ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم. أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتًا من بابكم هذا الذي تتنافسون فيه. ثم قال: أيها القوم! إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون، ولا سبيل لكم والله إلى ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله - عز وجل - أن يرزقكم شهادة، ثم نفض ثوبه وقام ولحق بالشام" [5].

فالرجل مؤمن، صاحب مبدأ، يرى الفضل لأصحابه بأعمالهم، لا بالرئاسة

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٣١١.
(٢) البداية والنهاية، ٣/ ٣١١.
(٣) انظر: الإصابة، ٢/ ٢٩، رقم٣٥٧٣، والاستيعاب ٢/ ١٠٧ وما بعدها، والجاحظ، البيان والتبيين ١/ ٥٨.
(٤) الجاحظ، البيان والتبيين ١/ ٣١٧.
(٥) الاستيعاب" ٢/ ١٠٩ وما بعدها".

والنسب والجاه، كما كان يريد أبو سفيان وقومه[1].

لقد كان سهيل بن عمرو خطيبا مفوها، يهجو الإسلام، وقد رفض أن يمثل به كما يمثل الهمجيون في قتلى وأسرى الجيش المهزوم، وسن بذلك سنة حسنة في الحروب، ويبقى له الفضل والسبق في تحريم إهانة الأسرى أو إيذائهم.

- وكان عمرو بن أبي سفيان بن حرب أسيرا في يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أسرى بدر، وأسره علي بن أبي طالب، فقيل لأبي سفيان افد عمرا ابنك، قال أيجمع علي دمي ومالي قتلوا حنظلة وأفدي عمرا دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم. فبينما هو كذلك محبوس بالمدينة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ خرج سعد بن النعمان بن أكال، أخو بني عمرو بن عوف ثم أحد بني معاوية معتمرا وكان شيخا مسلما، ولا يخشى الذي صنع به لم يظن أنه يحبس بمكة إنما جاء معتمرا: وقد كان عهد قريشا لا يعرضون لأحد جاء حاجا، أو معتمرا إلا بخير فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بابنه عمرو، ثم قال أبو سفيان:

أرهط ابن أكال أجيبوا دعاءه ::: تعاقدتم لا تسلموا السيد الكهلا
فإن بني عمرو لئام أذلة ::: لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكبلا

فأجابه حسان بن ثابت فقال:

لو كان سعد يوم مكة مطلقا ::: لأكثر فيكم قبل أن يؤسر القتلا
بعضب حسام أو بصفراء نبعة[2] ::: تحن إذا ما أنبضت تحفز النبلا

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [3] فأخبروه خبره؟ وسألوه أن يعطيهم ابن أبي سفيان فيفكوا به صاحبهم ففعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد [4].

- وكان العباس عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أسري بدر، وكان من أدب الأنصار أن استحوا من أنفسهم أن يكون عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أسرهم فاستأذنوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أن يطلقوا سراحه، فقالوا: ائذن لنا فلنترك

---

(١) الدكتور جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ١٦/ ٤٢٤.

(٢) نبعة من النبع والنبع: شجر يصنع منه القسي.

(٣) قال الواقدي: أن عمرو بن أبي سفيان صار في سهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقرعة.

(٤) الروض الأنف، ٣/ ١٠٢ - ١٠٣.

لابن أختنا[1] فداءه ، فقال: «**لا تدعون منه درهماً**» [2] .

وقد امتنع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إجابتهم لئلا يكون في الدين نوع من المحاباة .

ثم بعثت قريش إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فداء أسراهم ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا[3] ، وقال العباس: يارسول الله قد كنت مسلماً ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقولون فإن الله يجزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب**[4]**، وعقيل بن أبي طالب بن عبدالمطلب**[5]**، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر**» قال: ماذاك عندي يارسول الله قال: «**فأين المال الذي**

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: "المراد أنهم أخوال أبيه عبد المطلب ، فإن أمّ العباس هي (نُتيلة) بنت جنان ، وليست من الأنصار ، وإنما أرادوا بذلك أن أمّ عبد المطلب منهم ، لأنها سلمى بنت عمرو بن أُحيحة وهي من بني النجار ، ومثله ما وقع في حديث الهجرة أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل على أخواله بني النجار ، وأخواله حقيقة إنما هم بنو زهرة ، وبنو النجار أخوال جده عبد المطلب . الفتح ٥/ ١٦٨ .
ثم قال رحمه الله: "قال ابن الجوزي: وإنما قالوا ابن أختنا لتكون المنة عليهم من إطلاقه بخلاف ما لو قالوا: عمك ، لكانت المنة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهذا من قوة الذكاء ، وحسن الأدب في الخطاب ، وإنما امتنع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إجابتهم لئلا يكون في الدين نوع محاباة" . الفتح ٧/ ١٦٨ .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ٥/ ١٦٧ - ١٦٨ ، رقم (٢٥٣٧) و٦/ ١٦٧ ، رقم (٣٠٤٨) و٧ / ٣٢١ رقم (٤٠١٨) بلفظ: "والله لا تذرون منها درهماً" ، وابن حبان في صحيحه: الإحسان رقم (٤٧٩٤) ، والحاكم في المستدرك ٣/ ٢٢ ، ٣/ ٣٢٣ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٣٢٢ ، و٩/ ٦٨ ، وفي الدلائل ٣/ ١٤١ - ١٤٢ .

(٣) قد تباين فداء الأسرى من شخص لآخر حسب يسر كل واحد وعسره ، فقد قال ابن هشام ١/ ٦٦٠: كان فداء المشركين يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل ، إلى ألف درهم ، إلا من لا شيء له ، فمنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه . وانظر: المصنف لعبد الرزاق ٥/ ٢٠٦ رقم (٩٣٩٣) ، وأبو داود ٣/ ٦١ - ٦٢ رقم (٢٦٩١) ، ودلائل البيهقي ٣/ ١٤٠ .

(٤) هو: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال ابن حبان: له صحبة . الإصابة ٣/ ٥٧٧ .

(٥) عقيل - بفتح أوله - ابن أبي طالب بن عبد مناف القرشي الهاشمي ، أخو علي وجعفر وكان الأسن يكنى أبا يزيد . . . تأخر إسلامه إلى عام الفتح وقيل: أسلم بعد الحديبية ، وهاجر في أول سنة ثمان ، وكان قد أسر يوم بدر ففداه عمه العباس ، مات في أول خلافة يزيد . الإصابة ٢/ ٤٩٤ .

دفنته أنت وأم الفضل [1]؟ فقلت لها إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل بن العباس [2] وعبدالله بن العباس [3] وقثم بن العباس [4]» .

قال: والله يارسول الله إني لأعلم أنك رسول الله إن هذا الشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل فأحسب لي يارسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك**» ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٧٠ - ٧١] .

قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين أوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ماأرجو من مغفرة الله عز وجل [5] .

هذا والعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب، فهذه الآية الكريمة وإن كانت نزلت في العباس إلا أنها عامة في جميع الأسرى .

أما الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابة، ولم يكن لدى أهليهم أو لديهم مقدرة على الفداء، فقد جعل فداؤهم أن يعلموا أبناء الأنصار القراءة والكتابة،

---

(١) أم الفضل امرأة العباس بن عبد المطلب، اسمها: لبابة بنت الحارث الهلالية، وهي لبابة الكبرى، أسلمت قبل الهجرة فيما قيل، وقيل بعدها، وقال ابن سعد: "أم الفضل أول امرأة آمنت بعد خديجة، قال ابن حبان: ماتت في خلافة عثمان قبل زوجها العباس". الإصابة ٤/ ٤٨٤ .

(٢) الفضل بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي، ابن عم سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أكبر الإخوة وبه كان يكنى أبوه وأمه، واسمها لبابة بنت الحارث الهلالية، كان أسن ولد العباس وغزا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة وحنيناً وثبت معه يومئذ . الإصابة ٣/ ٢٠٨ .

(٣) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو العباس ابن عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث، اتفقوا على أنه مات بالطائف سنة ثمان وستين، واختلفوا في سنه، فقيل: ابن إحدى وسبعين، وقيل: ابن أربع والأول هو الأقوى . الإصابة ٢/ ٣٣٠ .

(٤) قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، أخو عبد الله وإخوته أمه أم الفضل، كان يشبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أحدث الناس عهداً برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . الإصابة ٣/ ٢٦٦ .

(٥) البخاري في المغازي، باب ١٢ حديث رقم ٤٠١٨ .

وقد وردت رواية صحيحة الإسناد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة . . .» [1].

إن قبول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة، وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول مانزل من كتابه الكريم: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** ﴾ [العلق: ١ - ٤] واستفاضت فيه نصوص القرآن والسنّة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يعتبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول من وضع حجر الاساس في إزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق في هذا للإسلام [2].

مواقف إيمانية في غزوة بدر:

١ - روي ابن إسحاق عن عبد الله بن عباس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأصحابه يومئذ: «**إني قد عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم؟ قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرها**» فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة[3]: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ونترك العباس، والله لئن لقيته لالحمنه بالسيف.

فبلغت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لعمر: "يا أبا حفص" قال عمر: والله إنه لاول يوم كناني فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبي حفص، أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟" فقال عمر: يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق.

فقال أبو حذيفة: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها

---

(١) أحمد - المسند ٤/ ٤٧ (حديث ٢٢١٦) وإسناده صحيح.

(٢) أبو شهبة، السيرة النبوية ٢/ ١٦٤، ١٦٥.

(٣) أبو حُذيفة بن عُتبة بن ربيعة القرشي العَبْشَمِي كان من فضلاء الصحابة من المهاجرين الأولين شهد المشاهد كلها وقتل يوم اليمامة، ابن عبد البر، الاستيعاب، ٤/ ١٩٧.

خائفا إلا أن تكفرها عني الشهادة فقتل يوم اليمامة شهيدا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

٢ - استشهاد حارثة بن سراقة: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع؟ فقال: «**ويحك أَوَهَبلْتِ أَوَجَنَّة واحدة هي؟ إنها جنانٌ كثيرةٌ، وإنه في جنةِ الفردوسِ**»[2].

قال ابن كثير معلقاً: وفي هذا تنبيه عظيم على فضل أهل بدر فإن هذا الذي لم يكن في بحيحة القتال ولا في حومة الوغى بل كان من النظارة من بعيد وإنما أصابه سهم غرب وهو يشرب من الحوض ومع هذا أصاب بهذا الموقف الفردوس التي هي أعلى الجنان وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة التي أمر الشارع أمته إذا سألوا الله الجنة أن يسألوه إياها فإذا كان هذا حال هذا فما ظنك بمن كان واقفا في نحر العدو وعدوهم على ثلاثة أضعافهم عددا وعددا[3].

٣ - مقتل أبي البختري بن هشام: وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نهي الصحابة عن قتل أبو البختري بن هشام، قال ابن إسحاق: وإنما نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتل أبي البختري لانه كان أكف القوم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بمكة[4].

كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شئ يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة فلقيه المجذر بن ذياد البلوي حليف الأنصار فقال له: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهانا عن قتلك ومع أبي البختري زميل له خرج معه من مكة وهو جنادة بن مليحة وهو من بني ليث.

قال وزميلي؟ فقال له المجذر[5] لا والله ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك، قال لا والله إذا لاموتن أنا وهو جميعا لا يتحدث عني نساء قريش بمكة أني تركت زميلي حرصا على الحياة.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٤، البداية والنهاية، ٣/ ٣٤٨.

(٢) البخاري في المغازي، باب فضل من شهد بدرًا رقم (٣٩٨٢).

(٣) البداية والنهاية، ٣/ ٣٩٨.

(٤) قال الواقدي: كان أبو البختري قد لبس السلاح يوما بمكة في بعض ما كان بلغ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الاذى وقال: لا يعترض اليوم أحد لمحمد بأذى إلا وضعت فيه السلاح.

(٥) الواقدي روى القصة وسمى الرجل صاحب القصة مع أبي البختري: أبا داود المازني.

وقال أبو البختري وهو ينازل المجذر:

لـن يتـرك ابـن حـرة زمـيله ::: حـتى يمـوت أو يـرى سـبيله

قال: فاقتتلا فقتله المجذر بن ذياد وقال في ذلك:

إمـا جهلـت أو نـسيت نـسبي ::: فأثـبت النـسبة أني مـن بلـي
وأعـبط القـرن بغـضب مـشرفي ::: والـضاربين الكـبش حـتى ينحني
أنـا الـذي يقـال أصـلي مـن بلى ::: أو بـشرن بمـثلها مـن بـني
بـشر بيـتم مـن أبـوه البختـري ::: أطعـن بالـصعدة حـتى تنـثني
الطاعـنين بـرماح اليـزني ::: أرزم للمـوت كـإرزام المـري

فلا تـرى مجذراً يفـري فـري

ثم أتى المجذر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فأتيك به فأبى إلا أن يقاتلني، فقاتلته فقتلته[1].

٤ - استشهاد عوف بن الحارث: قال ابن إسحاق حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة: (أن عوف بن مالك وهو ابن عفراء[2]، قال: يارسول الله مايضحك الرب من عبده؟ قال: «غمْسة يده في العدو حاسراً»[3] فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل[4].

وهذا الخبر يدل على قوة ارتباط الصحابة الكرام بالآخرة وحرصهم على رضوان الله تعالى ولذلك انطلق عوف بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كالسهم وهو حاسر غير متدرع يثخن في الأعداء حتى أكرمه الله بالشهادة، لقد تغيرت مفاهيم المجتمع الجديد، وتعلق أفراده بالآخرة وأصبحوا حريصين على مرضاته بعد أن كان جل همهم أن تتحدث عنهم النساء عن بطولاتهم، ويرضى سيد القبيلة عنهم، وتنشد الأشعار في شجاعتهم[5].

٥ - استشهاد عُمَيْر بن الحُمَام: وفي غزوة بدر الكبرى قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»، فقال عمير بن الحمام الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يارسول الله جنة عرضها السماوات

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٩٨، البداية والنهاية، ٣/ ٣٤٨.
(٢) عفراء بنت عبيد بن ثعلبة شارك أولادها السبعة في غزوة بدر.
(٣) حاسراً: غير لابس الدرع.
(٤) صحيح السيرة النبوية، ص٢٤٥.
(٥) التربية القيادية، ٢/ ٣١.

والأرض؟ قال: «**نعم**»، قال: بخ بخ [1]. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يحملك على قولك بخ بخ**». قال: لا. والله يا رسول الله إلّا رجاءة [2] أن أكون من أهلها. قال: «**فإنّك من أهلها**» فأخرج تمرات من قرنه [3]. فجعل يأكل منهنّ. ثمّ قال: لئن أنا حييت حتّى آكل تمراتي هذه إنّها لحياة طويلة.

قال فرمى بما كان معه من التّمر، ثمّ قاتلهم حتّى قتل [4].

٦ - استشهاد سعد بن خيثمة: عن سليمان بن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمّا خرج إلى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعا الخروج معه، فذكر ذلك للنّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمر أن يخرج أحدهما. فاستهما [5]، فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنّه لابدّ لأحدنا من أن يقيم، فأقم مع نسائك، فقال سعد: لو كان غير الجنّة لآثرتك به، إنّي أرجو الشّهادة في وجهي هذا، فاستهما، فخرج سهم سعد؛ فخرج مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بدر، فقتله عمرو بن عبد ودّ) [6].

٧ - استشهاد عمير بن أبي وقاص: (عن سعد بن أبي وقّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقّاص قبل أن يعرضنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر يتوارى [7]، فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إنّي أخاف أن يراني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيستصغرني فيردّني، وأنا أحبّ الخروج لعلّ الله أن يرزقني الشّهادة. قال: فعرض على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فردّه، فبكى فأجازه. فكان سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: فكنت أعقد حمائل [8] سيفه من صغره، فقتل وهو ابن ستّ عشرة سنة) [9].

---

(١) بخ بخ: كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير، وفيها لغتان: سكون الخاء وكسرها منونا.

(٢) إلا رجاءة: أي واللّه ما فعلته لشيء إلا رجاء أن أكون من أهلها.

(٣) قرنه: جعبة النشاب.

(٤) مسلم، ١٩٠١.

(٥) فاستهما: أي اقترعا.

(٦) الإصابة، ٣/ ٧٥.

(٧) يتوارى: يستتر.

(٨) حمائل: جمع حمالة (بكسر الحاء) علاقة السيف ونحوه.

(٩) الإصابة (٥/ ٣٦)، واللفظ له، وأخرجه البزار ورجاله ثقات، كما في المجمع (٦/ ٦٩)، وأسد الغابة (٤/ ١٤٨).

٨ - مشاركة القائد جنوده في الصعاب: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا يوم بدر، كل ثلاثة على بعير، فكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: فكانت إذا جاءت عقبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالا: نحن نمشي عنك قال: «**ما أنتما بأقوى مني وما أنا بأغنى عن الأجر منكما**»[١].

فالقائد الصالح هو من يشارك جنوده الصعاب، ويحفزهم على القليل والكثير من الصالحات، ليكون قدوة طيبة أخلاقية لجنوده في المنشط والمكره، وليس القائد بالذي يتخلف عن جيشه رهبا من الموقف أو يتلذذ بصنوف النعيم الدنيوي وجنده يكابد الحر والقر[٢].

٩ - وقتل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاله العاص بن هشام[٣] ضارباً بالقرابة عرض الحائط أمام رابطة العقيدة، بل كان يفخر بذلك تأكيداً لهذه الفكرة وبعد انتهاء المعركة أشار بقتل أسارى المشركين، وفي تلك الحادثة دروس وعبر عظيمة قد ذكرتها في كتابي السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، وعندما وقع العباس عمّ النبي في الأسر حرص عمر على هدايته وقال له: يا عباس أسلم، فوالله لئن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله يعجبه إسلامك[٤]

١٠ - ونادى أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابنه عبد الرحمن - وهو يومئذ مع المشركين - فقال: أين مالي يا خبيث؟ فقال عبد الرحمن:

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ شَكَّةٍ وَيَعْبُوب ::: وصَارِمٍ يَقْتُلُ ضُلاَّل الشَّيَبْ[٥]

١١ - وفي يوم بدر أيضا دعا أبو بكر الصديق ابنه عبد الرحمن إلى المبارزة وكان أسن أولاده فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**متعنا بنفسك أما علمت أنك مني بمنزلة سمعي وبصري**»[٦].

---

(١) ابن هشام، ٢/ ٣٨٩، وحسنه الألباني في تحقيق فقه السيرة ١٦٧.
(٢) محمد مسعد ياقوت، الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية، ص٥٦.
(٣) البهنساوي، الخلافة والخلفاء الراشدين، ص١٥٤.
(٤) البداية والنهاية، ٣/ ٢٩٨.
(٥) يعني لم يبق إلا عدة الحرب، وحصان وهو اليعبوب يقاتل عليه شيوخ الضلالة، هذا يقوله في حال كفره. انظر: سيرة ابن هشام: ٢ / ٢٩١.
(٦) أخرجه الحاكم لَمَّا٣/ ٢٢٣]، طرفاً منه وأخرجه البيهقي [٨/ ١٨٦]، باب ما يكره لأهل العدل من أن يعمد قتل ذي رحمه من أهل البغي.

ثم أسلم عبد الرحمن في هدنة الحديبية وحسن إسلامه وهاجر إلى المدينة وكان شجاعا راميا شهد اليمامة مع خالد بن الوليد وهو الذي قتل محكم اليمامة بن الطفيل الذي كان من قواد بني حنيفة المشهورين رماه بسهم في نحره فقتله ، وكان عبد الرحمن أسن ولد أبي بكر وكان فيه دعابة . توفي فجأة بمكان اسمه حبش[1] وحمل إلى مكة ودفن فيها وكان موته سنة ٥٣ هجرية ، فقدمت عائشة من المدينة فأتت قبره فصلت عليه وتمثلت بقول الشاعر

وكنا كندماني جذيمة حقبة ::: من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا ::: أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
وعشنا بخير في الحياة وقبلنا ::: لطول اجتماع لم نبت ليلة معا[2]

١٢ - وقاتل عكاشة بن محصن الأسدي حليف بني عبد شمس يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده فأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعطاه جذلا[3] من حطب فقال: «**قاتل بهذا يا عكاشة**» ، فلما أخذه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هزه ، فعاد سيفًا في يده طويل القامة ، شديد المتن ، أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى العَوْن ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد ، حتى قتل في حروب الردة وهو عنده[4] .

١٣ - كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين ، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صفوف المشركين ثم وقع أسيراً في يد أحد الأنصار[5] فقال مصعب للأنصاري شدّ يدك به فإن أمه[6] ذات متاع ، فقال أبو عزيز: يا أخي هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك[7] .

---

(١) وهو جبل بينه وبين مكة ستة أميال .
(٢) جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ، تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ١٩٩٧م ، ص ١٠٥ ، ورواه الترمذي في سننه ، ٣/ ٣٧١ ، والحاكم في مستدركه ، ٣/ ٥٤١ .
(٣) الجذل: ما عظم من أصول الشجر المقطع ؛ وقيل: هو من العيدان ما كان على مثال شماريخ النخل .
(٤) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٩٠ ومغازي الواقدي ١ / ٩٣ ، زاد المعاد ، ٣/ ١٨٦ .
(٥) في الواقدي: أسره أبو اليسر ، ثم اقترع عليه فصار لمحرز بن نضلة .
(٦) أمه: الخناس بنت مالك العامرية ، وأخته هند بنت عمير ، أم شيبة بن عثمان حاجب الكعبة ، جد بني شيبة .
(٧) البداية والنهاية ، ٣/ ٣٠٧ .

إنها القيم المطروحة لتقوم الإنسانية على أساسها فإذا العقيدة هي آصرة النسب والقرابة وهي الرباط الاجتماعي [1].

١٤ - ولما أمر بإلقاء جيف المشركين في القَلِيب، وأخذ عتبة بن ربيعة - وكان عتبة بن ربيعة أول من بارز المسلمين - فسحب إلى القليب، نظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجه ابنه أبي حذيفة - وكان أبو حذيفة من خيار أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: «**يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟**» فقال: لا والله، يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأيًا وحلمًا وفضلًا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك. فدعا له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخير، وقال له خيرًا [2].

ولا شك أن هذا الموقف العجيب من الولد نحو أبيه في تلكم المعركة التي قامت بين الحق والباطل، ليأخذ بأيدينا إلى عبرة بالغة ويسلمنا إلى حقيقة رائعة، وهي أن العقيدة إذا امتزجت بالنفوس واطمأنت بها القلوب فلن يخدعها هوًى أو رغبة، ولن تقف في سبيلها أية عاطفة في هذا الوجود [3].

الثناء على أهل بدر:

إن الصحابة الذين شهدوا موقعة بدر مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم الذين اختارهم رب العالمين واصطفاهم فجعل لهم ميزة تميزوا بها على غيرهم من عباد الله المؤمنين إذ أن معركة بدر تعتبر من أعظم المعارك التي انتصر فيها الإسلام على الكفر وأهله، وبسببها انتشر ضوء الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية، ثم إلى خارجها، وبسببها أضيئت الطريق أمام الدعاة إلى الله لتحقيق العبودية لله - سبحانه وتعالى - ونبذ جميع المعبودات التي تعبد من دون الله نتيجة اتباع الهوى والتقليد الأعمى، وكل من شارك من الصحابة في وقعة بدر كانت له المكانة اللائقة بالثناء الحسن في الدنيا والفوز بالجنة والنجاة من النار في الآخرة، فأهل بدر هم النجوم التي أضاءت تاريخ الإسلام حتى أصبح يقال لأحدهم: فلان

---

(١) معين السيرة، ص٢١٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٣٤٢)، ورواه الحاكم في المستدرك، ٣/ ٢٢٤.

(٣) محمد الطيب النجار، القول المبين في سيرة سيد المرسلين، دار الندوة الجديدة بيروت - لبنان، ١/ ٢٣١.

بدري ، وشهد بدراً وكفى بهذه المنقبة شرفاً وتعظيماً لهم في هذه الدنيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكفى بذلك أجراً وإحساناً عند رب العالمين في الحياة الآخرة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فلقد أعطاهم ذلك ربهم - تبارك وتعالى - وفضلهم على كثير من عباده تفضيلاً[1] .

ففي الكتاب العزيز شهد الله لهم بإخلاص نياتهم في الجهاد في سبيل الله ومن أجل ذلك أكرمهم الله - تعالى - بالنصر على أعداء الله من أهل الكفر والضلال ، وما ذلك إلا لفضلهم عند الله - جل وعلا - وأن لهم كرامة ومكانة ومنزلة رفيعة عنده - تبارك وتعالى - كما شهد الله لهم بحقيقة الإيمان .

فالآيات التي أثنى الله عليهم بما ذكر هي:

١ - قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ واللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران: ١٣] .

هذه الآية تشير إلى اللقاء الذي وقع بين المسلمين وبين المشركين يوم بدر ، وفيها ثناء من الله - تعالى - على أهل بدر بخلوص نياتهم في الجهاد يوم بدر وأنهم ما قاتلوا يومذاك حمية ولا شجاعة ولا لترى أمكانهم ، وإنما قاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى فأيدهم الله بنصره وأكرم بها من منقبة وأكرم به من موقف عظيم يذكرون به في الدنيا والآخرة وجدير بهذا الموقف العظيم أنه موضع للتفكر والاتعاظ والاعتبار لمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة .

قال العلامة ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ﴾ الآية: " يعني بذلك - جل ثناؤه - قل يا محمد للذين كفروا من اليهود الذين بين ظهراني بلدك قد كان لكم آية يعني علامة ودلالة على صدق ما أقول إنكم ستغلبون . . . والفئة الجماعة من الناس التقتا للحرب وإحدى الفئتين ، رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن كان معه ممن شهدوا وقعة بدر والأخرى مشركو قريش: ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله ﴾: جماعة تقاتل في طاعة الله وعلى دينه وهم رسول الله وأصحابه: ﴿ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ وهم مشركو قريش .

---

(١) ناصر بن علي عائض حسن الشيخ ، عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام ، مكتبة الرشد ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة: الثالثة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ، ١ / ١٦٥ ، وكان جل إعتمادنا عليه في هذا المبحث .

قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ قال: أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببدر: ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ فئة قريش الكفار.

وقال عكرمة في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾: قال: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه: ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ قال: قريش يوم بدر.

وقال مجاهد: ذلك يوم بدر التقى المسلمون والكفار"[1].

ومن خلال أقوال أئمة التفسير تبين أن الآية اشتملت على المدح والثناء على الفئة المؤمنة من البدريين، كما أنها أيضاً تضمنت التهديد لليهود الذين كانوا في المدينة حينذاك، فقد أخرج ابن جرير الطبري وغيره عن ابن عباس قال: لما أصاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريشاً يوم بدر فقدم المدينة جمع يهود في سوق بني قينقاع فقال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً فقالوا: يا محمد لا تغرنك نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً[2] لا يعرفون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تأت مثلنا فأنزل الله - عز وجل - في ذلك من قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ إلى قوله: ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أ. هـ[3].

فكأنه يقول لهم: يا معشر يهود لا يغرنكم كثرة العدد، ولا المال والولد فليس هذا سبيل النصر والغلب فالحوادث التي تجري في هذا الكون أعظم دليل على فساد ما تدعون انظروا إلى الفئتين اللتين التقتا، فئة قليلة من المؤمنين عددها ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ولم يكن معها من القوة إلا سبعون بعيراً يعتقبونها وفرسان فقط[4] ولما كانت تقاتل في سبيل الله كتب لها الفوز والغلب على الفئة الكثيرة من المشركين التي كان عددها ألف رجل ومعها من القوة مائتا فرس يقودونها[5] وفي هذا عبرة أيما عبرة لذوي البصائر السليمة التي استعملت العقول

---

(١) جامع البيان، ٣/ ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) الأغمار جمع - غمر - بالضم - وهو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور.

(٣) جامع البيان، ٣/ ١٩٢، وتفسير البغوي على حاشية الخازن، ١/ ٢٧٢، وتفسير ابن كثير، ٢/ ١٤.

(٤) السيرة لابن هشام، ١/ ٦١٣، زاد المعاد، ٣/ ١٧١، البداية والنهاية، ٣/ ٢٨٥، وانظر: مسند الإمام أحمد، ١/ ٤١١ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، المستدرك للحاكم، ٣/ ٢٠.

(٥) البداية والنهاية، ٣/ ٢٨٤.

فيما خلقت لأجله من التأمل في الأمور والاستفادة منها ووجه العبرة في هذا أن هناك قوة فوق جميع القوى وهي قوة الله التي يؤيد بها الفئة المؤمنة القليلة، فتغلب الفئة المشركة الكثيرة بإذنه - تعالى - وقال ابن جرير مبيناً معنى قوله - تعالى - في الآية السابقة: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ واللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾. وتأويل الكلام قد كان لكم آية يا معشر اليهود في فئتين التقتا: إحداهما: تقاتل في سبيل الله.

وأخرى: كافرة يراهم المسلمون مثليهم رأي أعينهم فأيدنا المسلمة وهم قليل عددهم على الكافرة وهم كثير عددهم حتى ظفروا بهم معتبر ومتفكر والله يقوي بنصره من يشاء - وقال جل ثناؤه - إن في ذلك يعني فيما فعلنا بهؤلاء الذين وصفنا أمرهم من تأييدنا الفئة المسلمة مع قلة عددها على الفئة الكافرة مع كثرة عددها لعبرة يعني: لمتفكراً ومتعظاً لمن عقل وأدرك فأبصر الحق" أ. هـ[1].

٢ - وأما الشهادة من الله تعالى للبدريين بحقيقة الإيمان ففي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فيها إخبار من المولى - جل وعلا - بحقيقة إيمانهم فلقد أخبر - سبحانه - نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قواه وأعانه بنصره يوم بدر، كما أيده وأعانه بالمؤمنين، والمؤمنون الذين أيده بهم هم المهاجرون والأنصار الذين حضروا موقعة بدر المباركة قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وإنما أيده في حياته بالصحابة" أ. هـ[2].

وقال مقاتل: في بيان معنى الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: قواك بنصره وبالمؤمنين من الأنصار يوم بدر[3].

وقال ابن جرير: عند الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾: "يقول: الله الذي قواك بنصره إياك على أعدائه: ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: بالأنصار[4].

وقال أبو عبد الله القرطبي: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ أي: قواك بنصره يريد

---

(١) جامع البيان ٣/ ١٩٨، وانظر: تفسير البغوي على حاشية تفسير الخازن ١/ ٢٧٣، وانظر تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٥.

(٢) منهاج السنة، ١/ ١٥٦.

(٣) زاد المسير، ٣/ ٣٧٦.

(٤) جامع البيان، ١٠/ ٣٥.

يوم بدر: ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النعمان بن بشير نزلت في الأنصار: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمع بين قلوب الأوس والخزرج وكان تالف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعجزاته إلا أن أحدهم كان يلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها، وكان أشد خلق الله حمية فألف الله بالإيمان بينهم حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين، وقيل: أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار، والمعنى متقارب" أ. هـ[1].

فالآية اشتملت على الثناء بالإيمان الحقيقي على أهل بدر من الفريقين من مهاجرين وأنصار الذين حضروا تلك الغزوة وأيد الله بهم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٣ - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وفي هذه الآية مدح الله - تعالى - المتبعين لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصفة الإيمان التي هي أعلى صفات الكمال وفي مقدمة هؤلاء الفئة المؤمنة من أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، ومعنى الآية كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصراً. قال ابن جرير عند هذه الآية: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا أيها النبي حسبك الله، وحسب من اتبعك من المؤمنين، الله يقول لهم جل ثناؤه ناهضوا عدوكم فإن الله كافيكم أمركم ولا يهولنكم كثرة عددهم وقلة عددكم فإن الله مؤيدكم بنصره"[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عند الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ﴾ أي: الله كافيك ومن اتبعك من المؤمنين والصحابة أفضل من اتبعه من المؤمنين وأولهم" أ. هـ[3]..

وقد نقل القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: عن ابن الكلبي أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إنها نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال[4].

وعلى هذا يكون المراد بالذين اتبعوه هم البدريون الذين كان عددهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً كما تقدم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٤٢.
(٢) جامع البيان، ١٠/ ٣٧.
(٣) منهاج السنة، ١/ ١٥٦، وانظر: زاد المعاد، ١/ ٣٥ - ٣٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٨/ ٤٣.

٤ - قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

فالمقصود بالمؤمنين في هذه الآية هم الذين شهدوا بدراً مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقاتلوا معه أعداء دينه من كفار قريش فلقد شهد الله لهم في هذه الآية بأنهم مؤمنون وأكرم بها من شهادة صادرة عمن يعلم السر وأخفى فهو - سبحانه - علم حقيقة أنفسهم وما انطوت عليه من تحقيق الإيمان الصادق، فأخبر - سبحانه - بما استقر في نفوسهم الزكية من حقيقة الإيمان والبلاء الحسن الذي أبلى به أولئك المؤمنون هو ما أنعم الله به عليهم من الظفر بأعدائهم وغنيمتهم ما معهم، وإثبات ما لهم من الأجر على أعمالهم وجهادهم مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك هو البلاء الحسن.

ذكر ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عن ابن إسحاق أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً﴾ أي: ليعرف المؤمنين من نعمه عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عددهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه وليشكروا بذلك نعمته "أ. هـ"[(١)].

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عند قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾: "فهذه الآية نزلت في شأن رميه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصحابته "أ. هـ"[(٢)].

وروى ابن جرير الطبري: بإسناده إلى محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي أنهما قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال: «**شاهت الوجوه**» فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[(٣)].

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: "وأخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ملء كفه من الحصباء فرمى بها وجوه العدو، فلم تترك رجلاً منهم إلا ملأت عينيه،

---

(١) جامع البيان ٩/ ٢٠٦.

(٢) مدارج السالكين، ٣/ ٤٢٦.

(٣) جامع البيان، ٩/ ٢٠٥ وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند رجاله رجال الصحيح انظر: مجمع الزوائد، ٦/ ٨٤.

وشغلوا بالتراب في أعينهم وشغل المسلمون بقتلهم فأنزل الله في شأن هذه الرمية على رسوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[1].

فالآية اشتملت على مدح أهل بدر والثناء عليهم بصفة الإيمان التي هي من أعلى صفات الكمال التي يسعى لتحقيقها عباد الله المؤمنون بكل ما يمكنهم من العمل الصالح.

٥ - قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤].

٦ - وقال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١١ - ١٢].

فقوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ شهادة قاطعة يقينية على إثبات إيمان أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكفى بهذه الشهادة شرفاً ورفعة لأولئك البدريين الأطهار إذ هي شهادة صادرة من رب السماوات والأرض وما بينهما الذي يعلم الأمور على حقائقها وما هي عليه.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عند الآية: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك من أصحابك: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ وذلك يوم بدر" أ. هـ[2].

وقد بين الله في الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ الآية أن المطر الذي أنزله على أرض بدر كان لهم فيه أربع فوائد هي:

١. تطهيرهم حسياً بالنظافة التي تنشط الأعضاء وتدخل السرور على النفس وشرعياً بالغسل من الجنابة، والوضوء من الحدث الأصغر.

٢. إذهاب رجس الشيطان عنهم ووسوسته.

٣. الربط على قلوبهم، أي: توطين النفس على الصبر وتثبيتها كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

---

(١) زاد المعاد، ٣/ ٨٢.

(٢) جامع البيان، ٤/ ٧٦.

٤ . تثبيت أقدامهم ذلك أن المطر لبد الرمل وصيره بحيث لا تغوص فيه أرجلهم فقدروا على مناجزة أعدائه من المشركين[١] .

وفي هذه الفوائد الأربع تكريم لأولئك البدريين رضوان الله عليهم أجمعين .

وأما قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] .

وهذه الآية مع ما دلت عليه من إثبات إيمان أهل بدر كذلك دلت صراحة على مشاركة الملائكة في قتال أعداء الدين من كفار قريش .

وقد جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وسوط الفارس يقول: أقدم حيزوم[٢] فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**صدقت ذلك من مدد السماء السادسة...** » الحديث[٣] .

وروى الإمام أحمد بإسناده إلى أبي داود المازني وكان شهد بدراً قال: إني لأتبع رجل من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قتله غيري[٤] .

وروى أيضاً رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: بإسناده إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . . . قال: جاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيراً فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني لقد أسرني رجل أجلح[٥] من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق[٦] ما أراه في القوم ، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول

---

(١) انظر: جامع البيان الطبري ٩/ ١٩٤ ، وانظر: زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٧٥ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٣٧٣ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٢٨٩ .

(٢) "حيزوم" جاء في التفسير أنه اسم فرس جبريل عليه السلام .

(٣) صحيح مسلم ، ٣/ ١٣٨٤ - ١٣٨٥ .

(٤) المسند ، ٥/ ٤٥٠ ، وابن هشام في السيرة ، ١/ ٦٣٣ .

(٥) الأجلح من الناس الذي انحسر الشعر عن جانبيه رأسه ١/ ٢٨٤ .

(٦) البلق: الدابة ، والبلق سواد وبياض وكذلك البلقة: بالضم .

الله ، قال: «**أسكت فقد أيدك الله تعالى بملك كريم**» [1] .

فهذه الأحاديث صرحت بمشاركة الملائكة في قتال المشركين يوم بدر قال العلامة ابن القيم: "وكانت الملائكة يومئذ تبادر المسلمين إلى قتل أعدائهم" أ . هـ [2] .

وإمداد الله – تعالى – لهم بالملائكة لم يكن دفعة واحدة بل كان بالتدريج" قال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين يوم بدر بألف ، ثم زادهم فصاروا ثلاثة آلاف ، ثم زادهم فصاروا خمسة آلاف ، قال الحافظ ابن حجر: وكأنه جمع بذلك بين آيتي آل عمران والأنفال" [3] .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى الحكمة في قتال الملائكة مع الصحابة في بدر فقال: قال الشيخ تقي الدين السبكي: "سألت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه؟ فقلت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وتكون الملائكة مددا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله – تعالى – في عباده ، والله تعالى هو فاعل الجميع والله أعلم" . [4]

وفيما قدمنا من الآيات القرآنية إثبات لفضل تلك الفئة المؤمنة من البدريين وكما ثبت فضلهم بنص القرآن الكريم كذلك ورد في إثبات فضلهم الكثير من الأحاديث النبوية الصحيحة ومنها ما يلي:

١ – روى الإمام البخاري بإسناده إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: "بعثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا مرثد والزبير ، وكلنا فارس ، قال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ** [5] **فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب ابن أبي بلتعة إلى المشركين**» فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلنا: الكتاب فقالت: ما معي كتاب ، وأنخناها ، فالتمسنا فلم نر كتاباً فقلنا: ما كذب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتخرجن الكتاب ، أو لنجردنك فلما رأت الجد أهوت إلى حاجزتها ، وهي محتجزة بكساء – فأخرجته ، فانطلقنا

---

(١) المسند ، ١/ ١١٧ .

(٢) زاد المعاد ، ٣/ ١٨٣ .

(٣) فتح الباري ، ٧/ ٣٣ ، وانظر: جمع قتادة بين الآيتين في جامع البيان ، ٤/ ٧٨ .

(٤) فتح الباري ٧/ ٣١٣ .

(٥) روضة خاخ: موضع بين مكة والمدينة بقرب المدينة شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ٥٥ ، وانظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/ ٣٣٥ .

بهـا إلى رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقـال عمـر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمـنين فـدعني فلأضـرب عـنقه . فقـال الـنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مـا حملك**» قال حاطب: والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أردت أن تكون لـي عـند القـوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي وليس أحد من أصحابك إلا له هـناك مـن عـشيرته مـن يدفـع الله بـه عـن أهلـه ومالـه فقـال الـنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**صـدق ولا تقولـوا لـه إلا خـيراً**» فقـال عمـر: إنـه قـد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه فقال: «**لعل الله اطلع على أهل بدر فقالوا اعملـوا مـا شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم**» . فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم .[1] .

فللـه ما أعظم هذا التكريم لتلك الفئة المؤمنة من البدريين ، وما أعظم فضلها عند المولى – سبحانه وتعالى – .

قال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: "ووقع الخبر بألفاظ منها: "فقد غفـرت لكـم" ومـنها: "فقـد وجـبت لكم الجنة" ومنها: "لعل الله اطلع" لكن قال العلمـاء: إن الترجـي في كـلام الله وكـلام رسوله للوقوع ، ثم قال: وقد استشكل قـوله: «**اعملوا ما شئتم**» فإن ظاهره أنه للإباحة وهو خلاف عقد الشرع وأجيب: بأنـه إخبار عن الماضي – أي: كل عمل كان لكم فهو مغفور ويؤيده أنه لو كان لما يـستقبلونه مـن العمل لم يقل بلفظ الماضي ولقال: فسأغفره لكم ، وتعقب بأنه لو كان للماضي لما حسن الاستدلال به في قصة حاطب لأنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خاطب به عمـر منكـراً علـيه مـا قال في أمر حاطب وهذه القصة كانت بعد بدر بست سنين فـدل على أن المراد ما سيأتي ، وأورده في لفظ الماضي مبالغة في تحقيقه ، وقيل: إن صيغة الأمر في قوله: «**اعملوا**» للتشريف والتكريم والمراد عدم المؤاخذة بما يصدر مـنهم بعـد ذلك وأنهم خصوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيمة التي اقتضت محـو ذنـوبهم الـسابقة وتأهلوا لأن يغفر الله لهم الذنوب اللاحقة إن وقعت ، أي: كـل مـا عملتموه بعد هذه الوقعة من أي عمل كان فهو مغفور . . وقيل: إن المراد ذنوبهم تقل إذا وقعت مغفورة . وقيل: هي بشارة بعدم وقوع الذنوب منهم . وفيه نظـر ظاهـر لقـصة قدامـة بـن مظعون حيث شرب الخمر في أيام عمر وحده . . . واتفقـوا علـى أن البشارة المذكورة فيما يتعلق بأحكام الآخرة لا بأحكام الدنيا من

(١) صحيح البخاري ، ٣/ ٧ ، صحيح مسلم ، ٤/ ١٩٤١ .

إقامة الحدود وغيرها والله أعلم[1].

وقال النووي: قال العلماء: معناه الغفران لهم في الآخرة وإلا فإن توجه على أحد منهم حد أو غيره أقيم عليه في الدنيا ونقل القاضي عياض الإجماع على إقامة الحد وأقامه عمر على بعضهم قال: وضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسطحاً الحد وكان بدرياً" أ. هـ[2].

وقال المناوي شارحاً لهذا الحديث: «**اعملوا ما شئتم أن تعملوا فإني غفرت لكم ذنوبكم**» أي: سترتها فلا أؤاخذكم بها لبذلكم مهجكم في الله ونصر دينه والمراد إظهار العناية بهم وإعلاء رتبتهم والتنويه بإكرامهم والإعلام بتشريفهم وإعظامهم لا الترخيص لهم في كل فعل كما يقال للمحب افعل ما شئت أو هو على ظاهره والخطاب لقوم منهم على أنهم لا يقارفون بعد بدر ذنباً وإن قارفوه لم يصروا بل يوفقون لتوبة نصوح فليس فيه تخييرهم فيما شاءوا وإلا لما كان أكابرهم بعد ذلك أشد خوفاً وحذراً مما كانوا قبله" أ. هـ[3].

٢ - روى الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى بإسناده إلى جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن عبداً لحاطب جاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكو حاطباً فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدراً والحديبية**»[4].

هذا الحديث فيه شهادة لحاطب بدخول الجنة رغم أنه كان يريد أن يعلم قريشاً بمسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم كما أن فيه التصريح بعدم دخول النار لمن شهد بدراً والحديبية.

٣ - وروى الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ بإسناده إلى رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر قال: جاء جبريل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما تعدون أهل بدر فيكم قال: "من أفضل المسلمين" - أو كلمة نحوها - قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة"[5].

---

(١) الفتح، ٧/ ٣٠٥ - ٣٠٦، وانظر: رسالته في الخصال المكفرة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، ١/ ٢٥٨.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، ١٦/ ٥٦ - ٥٧.

(٣) شرح الجامع الصغير، ٢/ ٢١٢.

(٤) صحيح مسلم، ٤/ ١٩٤٢.

(٥) صحيح البخاري، ٣/ ١٠.

وهـذا الحديث تضمن بيان درجة أهل بدر ويبين أن لهم درجة كبيرة ، ومنزلة عظيمة عـند الله - جـل وعـلا - فقـد نالـوا ذلك الفضل وتلك المنزلة بسبب ما قدمـوه في هـذه الحياة الدنيا من جهد في نصرة الإسلام ، وقمع عبدة الأصنام وما وقـر في قلـوبهم الطيـبة مـن حقيقة الإيمان فكون الملائكة تقاس بهم فإن ذلك من أعظـم الأدلـة علـى علو قدرهم وارتفاع درجتهم عند الله - تعالى - فرضوان الله عليهم أجمعين .

٤ - وروى الـبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإسناده أيضاً إلى أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: " أصيب - حارثة - يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: يـا رسـول الله قد عرفت منزلة حارثة مني ، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب وإن تكـن الأخـرى تـر مـا أصنع فقال: «**ويحك - أو هبلت - أو جنة هي؟ إنها جنان كثـيرة وإنه في جنة الفردوس**» [(١)] . ورواه بلفظ آخر بإسناده إلى أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن أم الـربيع بـنت الـبراء وهـي أم حارثة بن سراقة أتت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة - وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب[(٢)] فإن كان في الجـنة صبرت وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء قال: «**يا أم حارثة إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**» [(٣)] .

قـال الحـافظ ابـن كـثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بعد ذكره حديث حارثة هذا: "وفي هذا تنبـيه عظـيم علـى فـضل أهـل بدر فإن هذا لم يكن في بحيحة القتال ولا في حومة الوغـى بـل كـان مـن الـنظارة مـن بعيد ، وإنما أصابه سهم غرب وهو يشرب من الحـوض ومع هذا أصاب بهذا الموقف الفردوس - التي هي أعلا الجنان ، وأوسط الجـنة ومنه تفجر أنهار الجنة التي أمر الشارع أمته إذا سألوا الله الجنة - أن يسألوه إياها ، فإذا كان هذا حال هذا فما ظنك بمن كان واقفاً في نحر العدو وعدوهم على ثلاثة أضعافهم عدداً وعُدداً" أ . هـ[(٤)] .

٥ - وجـاء في مجمـع الـزوائد مـن حـديث أبـي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً من الأنـصار عمـي فـبعث إلى رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد اجتمع إليه قومه فتغيب

---

(١) صحيح البخاري ، ٣/ ٧ .

(٢) هـو الـذي: لا يعلـم راميـه ، أو لا يعـرف من أين أتى ، أو جاء دون قصد من راميه . فتح الباري ٦/ ٢٧ .

(٣) صحيح البخاري ، ٢/ ١٣٩ .

(٤) البداية والنهاية ، ٣/ ٣٦١ .

رجل فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما فعل فلان» فذكره بعض القوم فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أليس قد شهد بدرا**» قالوا: نعم ولكنه كذا وكذا فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فلعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» (١).

٦ - وفيه أيضاً: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني لأرجو أن لا يدخل النار من من شهد بدراً إن شاء الله**» (٢).

٧ - وروى الحاكم بإسناده إلى عبد الرحمن بن عوف قال: كلم طلحة بن عبيد الله عامر بن فهيرة بشيء فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مهلاً يا طلحة فإنه قد شهد بدراً كما شهدت وخيركم خيركم لمواليه**» ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٣).

٨ - ومن مناقب أهل بدر التي دلت على علو شأنهم، ورفعة مكانتهم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أنهم كتيبة الإيمان وعصابة الإسلام التي كان لها السبق في نصر دين الإسلام وإعلاء كلمته، وأن جهادهم في موقعة بدر كان من أعظم الأسباب في أن يعبد الله وحده لا شريك له على وجه الأرض. فقد روى الإمام مسلم بإسناده إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في الدعاء الذي دعا به يوم بدر: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**» (٤).

ذلك هو الثناء في الكتاب والسنة على تلك الفئة المؤمنة من البدريين الفضلاء فقد أوضح الله ورسوله مكانتهم أتم وضوح فقد كانوا في القمة من الكمال وما حصل لهم ذلك إلا باستجابتهم لربهم - تبارك وتعالى - على الوجه المطلوب في امتثال الأوامر واجتناب النواهي ولذلك كان جزاؤهم أن وفقهم الله لصالح الأعمال في الدنيا، وفازوا بالجنة في الأخرى والذي أخلص إليه مما تقدم أن الله تعالى أثنى على أهل بدر ثناء حسناً وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكانتهم وفضلهم في

---

(١) مجمع الزوائد ٩/ ١٦٠ ثم قال الهيثمي: رواه أبو داود وابن ماجه باختصار كثير في الأوسط وإسناده حسن.

(٢) المصدر السابق ٩/ ١٦١ وقال رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير خداش بن عياش وهو ثقة.

(٣) المستدرك، ٤/ ٧٧ وأقره الذهبي.

(٤) صحيح مسلم، ٣/ ١٣٨٤.

كثير من الأحاديث وقد ذكرنا بعضها فيما تقدم، فقد بين عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنهم مغفور لهم، وأن من شهد بدراً لا يدخل النار وذلك نتيجة لما وقر في قلوبهم من الإيمان الذي ظهرت براهينه في أعمالهم وبسبب ذلك نصرهم الله على عدوهم في موقعة بدر رغم قلة عددهم وعدتهم، ففتح الله عليهم وأخذ أئمة الكفر وشفى صدورهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في أعداء الله وأعداء رسوله والمؤمنين.

قال العلامة ابن القيم: "ثم ارتحل - أي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بعد انتهاء معركة بدر مؤيداً منصوراً قرير العين بنصر الله له، ومعه الأسارى والمغانم"[1].

فكان هذا اليوم يوم سعد وفوز للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وكان يوم نحس وشؤم على الكافرين والمنافقين وذلك لاختلاف الأعمال.

قال العلامة ابن القيم: "فسعود الأيام ونحوسها: إنما هو لسعود الأعمال وموافقتها لمرضاة الرب، ونحوس الأعمال إنما هو بمخالفتها لما جاءت به الرسل واليوم الواحد يكون يوم سعد لطائفة، ونحس لطائفة كما كان يوم بدر، يوم سعد للمؤمنين، ويوم نحس على الكافرين"[2].

* * * * *

(١) زاد المعاد، ٣/ ١٨٨.

(٢) مفتاح دار السعادة، ٢/ ١٩٤، وانظر: التفسير القيم لابن القيم، ص٤٣٠.